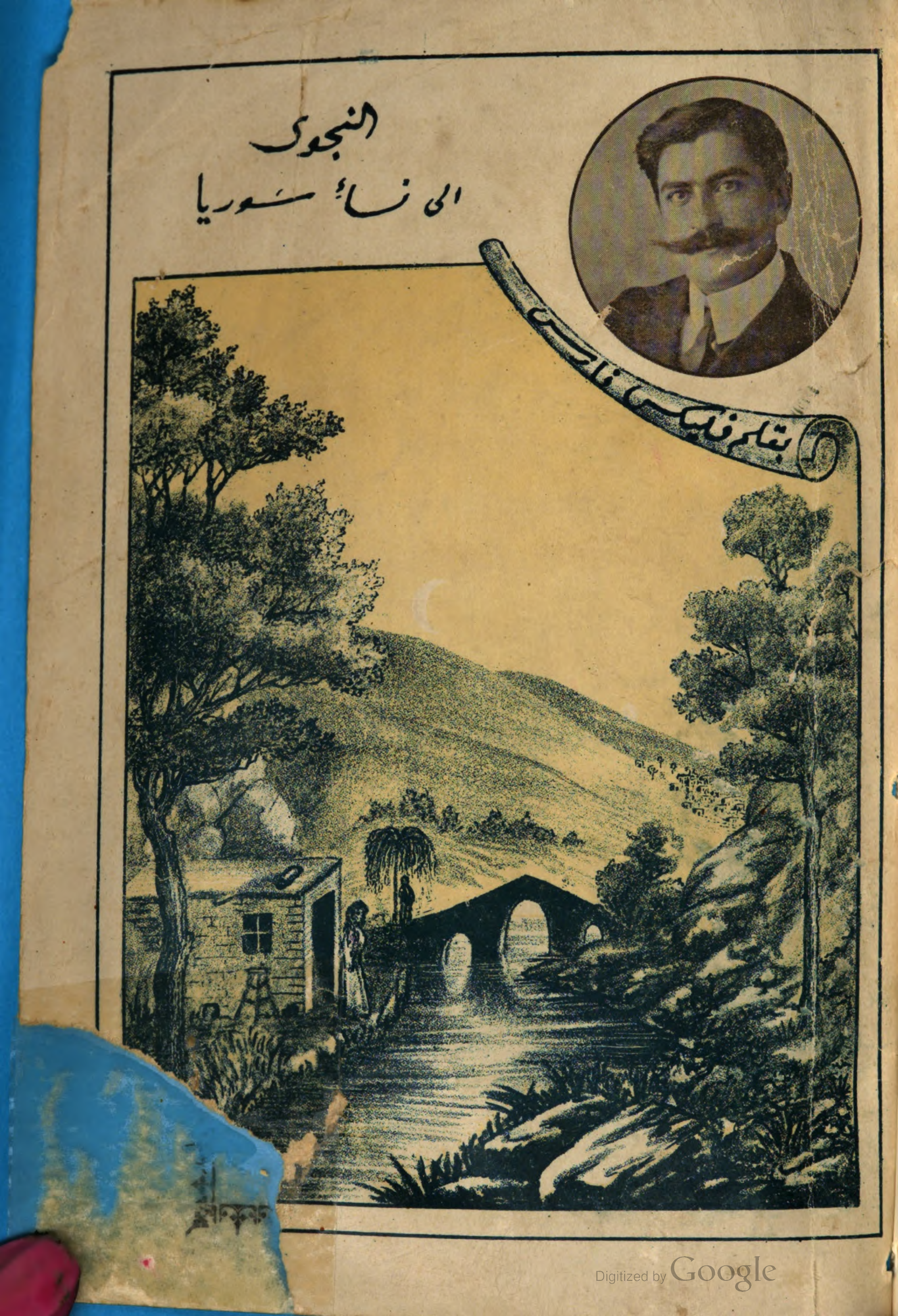

النجوى
الى نساء سوريا
بقلم فليكس فارس

النجوى

رسالة ورواية

الى

نساء سوريا

بقلم

فليكس فارس

(صاحب جريدة لسان الاتحاد)

سنة ١٩٠٨

المطبعة الحميدية عيد جدعون واولاده * بيروت

كلمة

هذه رسالة كتبتها قبل اعلان الدستور وانا تائهٌ بين احراش لبنان وصخوره ابكي على امتي و بلادي واخط لهـا بيد العجز ما توحي اليَّ الوطنية لنفعها ٠

كتبت هذه الرسالة والسلاسل الثقيلة رابطة على يدي فليصغ المطالع الى خشيش الاغلال من بين السطور ٠

ابقيت العبارة على ما هي لان الاصلاح الذي اقصده بما كتبت لهو اشد ضرورة بعصر الحرية منها بعصر العبودية ٠ فعسى ان يصادف وحي الاخلاص همةً يستنهضها او قلبًا داميًا يعزيه ٠

بيروت في غرة اذار سنة ١٩٠٩

فلبكس فارس



النجوى

الى الفاتحة عينيها لنور الحياة وقلبها لحياة النور ، يدها على الكتاب وعقلها يرتقي الى اوج الانسانية كفراشة الربيع البيضاء التي ترفرف مرتقية الى ما فوق ،

الى زهرة البشرية التي تعطر الدنيا بعبيرها الطاهر ، الى الواضعة يدها الجميلة بيد القوي لتعطيه العزم والشهامة ، تنفخ اللطف في الشدة والكرامة في القوة ومن عينيها ينبثق النور الذي يقود الانسان الى السعادة ،

الى الراكعة امام سرير الطفل ترضع جسمه الضعيف من ثدييها وتسقي روحه اللطيفة من نظراتها سائل الحب والحنان : خلاصة المبادئ الانسانية السامية ، مذوب قلب الام .

الى الجالسة جنب فراش المرض والعياء تحارب جراثيم الويل بضعفها العظيم ولطفها الشديد ودموعها القوية ، الى منبت ابناء الوطن ، الى جنة الطفل وحياة الشاب ورفيقة الكهل وتعزية الشيخ ، الى مرضعة الولد الداخل الى الدنيا ومغلقة اجفان الراحل الى الابدية ، الى الف الحياة الدنيا ويائها اوجه كلامي :

انتِ يا ابنة سوريا التي هزّت يمين جدتها أسرة اعاظم الدنيا انتِ

سلالة تلك المرأة الفينيقيــة التي لم يكن قر بها رجل شديد بعزمه الا وكانت اشد منه انعطافًا ءانت خلاصة قوة الدنيا التي انفجرت من ارض الشرق لتسود وجه الكرة باسرها انت العظيمة من قبل وراء خبائك وتمدنك القديم بكرامة اعظم من كرامة بار يسية اليوم وهي تمشي مع الرجل قدمًا لقدم. انت الحافظة في مهد الخمود الذي طرحك الزمان عليه تلك الفضيلة الساطعة كالشمس فضيلة الطاعة لرجلك وحفظ شرفك لر بك ولبنيك انت ياام ابنا الوطن وخطيبتهم وزوجتهم انت الروح الضعيفة المعذبة التي يضغط عليها قلبها كما يشد علينا جور الزمان بسلاسلة الحديدية .

اردد ابصا ري عليك يازهرة البلاد وعبيرها فلا اتمالك من دفع انين وذرف دمعة .

اراك تختبطين في عجاج العاطفة كما يختبط الرجل تعيسًا في حياته الاقتصادية . نحن نسقط تحت جناح الفكر المتأمل دون عزاء وانت تحار بين قلبك وقلبك يحار بك دون أمل .

مرت عليك القرون وتتابعت على سلالتك الاعصار وانت مبددة من اعالي جبال لبنان الى اطراف حلب الى غيــاض الشام الى نهر الاردن الى ضفاف بحر الروم تسيرين سر بًا منقطعًا عن البشر ية يربي الانسانية ويتبعها بكل حالاتها ولكنه بعيد عنها لا علاقة له بها الا عن طريق الجسم والخدمة الآلية .

مرت عليك اشباح الزمان ياابنة سوريا وانت غريبة عن الطفل الذي يشرب من صدرك وترتوي روحه من روحك ، غريبة عن الشاب الذي يركع امامك ولا يخاطب بذاتك السامية غير عينيك وبروز صدرك ونحول خصرك ، غريبة عن زوجك وهو يناضل في الحياة بالفكر وانت لديه الة تتحرك بلا فهم ولا شعور ، غريبة عن الشيخ الذي ينظر اليك كما ينظر المحارب الى فرسه بعد المعركة نظرة حنان العاقل على ما لا يعقل ، لفتة المفتكر الى رفيق الشقاء وهو من نوع مفروز وجنس آخر ... ميئات من السنين جرت على قلبك وشاح الخمود وعلى عقلك ستار الظلمة فكنت محبوبة لجمال جسمك ومكرمة من تعب يديك ولكن روحك كانت محرومة من الاعتبار الذي توجبه الارواح الراقية على البشرية نحو نفسها الثانية وهي انت ....

بينما كان الرجل القديم محنياً على الارض يعالجها او سائراً ورآ تجارته في الاقفار والفيافي ، بينما كان يجاهد في حياته ويدافع عن نفسه وقبائل سوريا تتالب ممزقةً بعضها بعضاً بالضغائن والاحقاد والتعصب والجهل في ذلك الليل الاربد الذي لم يكن بحاجة للقوة اكثر من حاجته للعطف لارتقا' الشواعر عن طريق المرأة كنت انت يا ابنة سوريا مفروزةً عن الالفة التي تحتاجك تحنين على ابنك وبين دماغك ودماغه ستار قائم ، يمالكك زوجك فلا يملك منك غير جسمك وهو بعيد عن روحك النائمة على السكون . كنت عفيفةً ولكن عفافك كان ناقصاً

بالوهم ، محبةً ولكن حبك كان ضعيفاً بالاستعباد كانت علاقتك بمن حولك تنحصر بالجسد وقد حرّموا على روحك الارتقا لتساوي ارواح ابيك وزوجك وابنك ولا شيء يجعل الحي غريباً حتى في بيته كوجود تفاوت بين نفسه ونفوس من حوله .

اما الان وقد كسرت الايام قيدك يا ابنة سوريا اما الان وقد رفعت رأسك وتطلعت الى ما فوق فانت حرةٌ تتسلقين هذا الجدار الاملس الذى اصطلح الناس ان يسموه ارتقاء وقد يخال لك انك ترتقين . . انت اليوم وقد فتحت عينيك الجميلتين للنور وارتفعت اهدابك الطويلة منفرجة عن لمعان الامل ، انت تريدين ان تحرري روحك من اسرها صارخة امام الالفة :

(اذا كان جسدى اناء الانسان فنفسي سرير نفسه) ولكنك يا اختي تائهة على السبيل المتشعب ، لقد انتبهت روحك من رقادها كالطفل المستقبل شعاع الشفق فهو يتسكع في النور كما يتوه في الظلمة .

كنت بالامس خامدة العاطفة خاملة النفس اما اليوم فاراك قوية العواطف وقد لامست نفسك شرارة الحركة للحياة ، اراك تضلين وتختبطين فاحزن عليك كما احزن على نصفك الضال ولكن احب اليّ ان اراك سائرةً ولو على غير هدى من ان اراك جامدةً لا تشعرين بوجدانك لانني اعلم بان القوة التي تدفع الى التقهقر هي نفسها اذا دُربت تكون مبدأ الوصول الى المحجة المثلى وبلوغ ما سمح للانسان ان يبلغه

من الكمال ٠

انت يا ابنة سوريا ، يا زهرة لبنان تريدين الوصول الى موقفك الطبيعي الشريف فسلام على تلك الارادة وإجلالٌ لذلك القلب الذي رفعته دماء سلالتنا السامية وقدسه حسن القصد ولكن الطريق التي دلوك عليها والسبيل الذي دفعك الرجل عليه لهو سبيل ضلال يقود الى الهاوية ٠ وارى ضعفك يتدحرج عليه وروحك اللطيفة المنتبهة من رقادها مائلة الى الوجود تشخص الى بعيد وهي مرتكزة على شفا جرف هار ٠ فاسمحي ايتها الروح لهذه النفس الجريحة التي علّمها العذاب ان تنظر الى بعيد ، اسمحي لهذه النفس المجردة بقوة التامل والافتكار عن سفاسف الدنيا واوهامها ان تناجي بك دعامة الوطن وقوة الارض التي احبتها معك لانها مثلك تحن الى التراب الذي حمل سريرها ٠

انا مثلك يا اختي لا انظر الى الحياة الا من وجه الشعور والعواطف ٠ ان نفس المرأة ونفس الشاعر اختان عقدت يداهما ما وراء المنظور حيث نهاية التأثرات وغاية كل عاطفة وشعور ولهذا اقدم على مخاطبتك غير خائف ملالاً من قلبك ولا اجهاداً لفكرك فلست مكلمك بالمادة والمحسوس لا اخاطبك عن الخيال بل عن الاصل ، عن الروح عن القلب الذي يترأى امامه كل شيءٍ سواه اشباحًا مظلمة واوهامًا مضلة ٠ فاسمعي :

ايتها المرأة التي قطعت شوطًا بعيدًا من مراحل هذه الحياة ، انت التي مر عليك ثلاثون ربيعًا وعشرون صيفًا وقد اجتزت الخريف وانت

اليوم في شتا الحيـاة فلا تؤملين ان تشاهدي شمساً الا في ربيع البقاء الثاني ما وراء هذه المحسوسات الزائلة ، انت يا شيخة سوريا التي تتذكر امال الفتوة وقبلات الشبيبة ولم يزل السرير الذي ربيت عليه البنين نصب عينيك اراك تنظرين الى الالفة بعين الحنان الجامد والحب المجروح باخر مظـاهره واخوتك وبنوك وابناؤهم يدورون حولك ولا يلحظون وجودك . انت تجرّين جسدك المضنى وهو على شفير الابدية لتقومي بخدمة الرجل زوجك وابنك وبني بنيك وهم ينظرون اليك كجسد بلا روح ، كسراج بلانور ، كدماغ جامد ، خلا من حياة الفكر فلا يشترك معهم بفكر الحياة . عواطفك مجروحة كل يوم يا امرأة الامس وصبية ما قبله وشيخة اليوم .

فؤادك الذي تمخض بالحب الصادق وولد الاخلاص يموت منفرداً على مهد عواطفه . ذلك لان اباك لم يعلمك غير الطاعة ولم يوجب عليك سوى العفاف فها انت الان نحو بنيك كما اراد ان تكوني معه ، ارادك زهرة بلا عطر وجمالاً بلا قوة فساعد الطبيعة الكاذبة على فشل نفسك ودماغك فاصبحت آلة تتحرك بقوة واحدة وهي قوة القلب .. ولو امكن لالفة الامس ان تميت قلبك لفعلت ولكن العنصر او الظلم الذي يقدر ان يميت من المرأة قلبها لم يزل كامناً في عالم المستحيل .

يقدر المرء ان يلاشي ضمير المرأة يقدر ان يفسد نفسها ويضلل اعتقادها اما قلبها فهو حيٌ الى الابد . ولهذا ، لان قلبك لم يزل حياً ،

لأن عواطفك ما برحت بكل شدتها كامنةً في قلب لا يجسر ان ينبض ومستترةً وراء نفسٍ لم يعقلها التفكر والعلم لهذا انت معذبة بحبك يا شيخة الوطن ومربية بنيه من اجل قليل من العلم الانساني السطحي ومعرفة الاصطلاحات البشرية المتقلبة من اجل هذه الصلات التي قطعها الرجل بينك وبين الالفة اصبحت مفروزةً حتى عن اعز الكائنات لديك .. عن ابنك ؟ ؟

اما انا ايتها الشيخة المعذبة . انا الشاعر الذي يعلم نقص ما يعلم وضلال الانسانية بما تريد ان تعلم . انا الذي يتساوى عندي الاخلاص فاشعر به بين العلم والتهذيب كما لا يحتجب عن بصيرتي وراء ليل الجهل وستار الهمجية اقف امامك ولا ارى منك غير قلبك فاحني امامه الرأس اجلالا واستميحك عفواً عن رجالٍ اضلوك وماتوا وعن شبيبة تغتر بهذا الجهل المصقول الذي تحسبه علماً فتحتقر كل من لا يعلم . اقبل يدك التي هزت السرير مربيةً للوطن رجالاً كنت لهم اماً واذ انت مختلفة عنهم معرفة اصبحت لهم آمة .. تمي السير على طريق حياتك الى النهاية . ارفعي رأسك الى ما فوق لانك لم تنفعي الوطن بحبك وعملكِ فقط بل تجودين عليهِ ايضاً من تعاستك بامثولة رائعة تتعلمها بناتك منك لانهن لم يفقدن الامل كما فقدته انت ... واغفري لهذا القلم الذي يشتغل لنفع بلاده . اغفري له دخوله الى قلبك المعذب ليخرج منه ما كتب وقد يغتفر للطبيب تشريحه جثةً باردة ليستفيد من

الادواء التي قضت عليها معرفةً تداوي بها الاحياء ! !

وانت يا امرأة اليوم ايتها العقيلة والام ، انت الملاصقة للالفة ملاصقةً تجعل لها عليك حقوقاً مقدسة ، انت الواقفة موقف العمل في ميدانك الرحب في هذه الفوضى التي تثيرها عليك عواطفك من الداخل وآراء الناس من الخارج اسمحي لهذا القلم ان يجول قليلاً حول قلبك ولا تخافي منه لانه لا يبضع الا مكان الالم ولا يخرج غير الدم الاسود الفاسد . وانت تحفظين في قلبك نقطةً سوداء يا امرأة اليوم تشعرين بوجودها وعبثاً تفتشين على مادة تكوينها فاسمحي ان اخبرك عنها لان الناظر من بعيد يرى ما لا يراه البصر الملاصق . : اسمحي ان اكتب عنك شيئاً يا اختي فان اقلام الكتاب كانت ولم تزل حائمة حول موضوع ترقيك وتمجيد مقامك في كل اقطار العالم المتمدن اما في سوريا فقلما يهتم الكتاب بك واذا شاء احدهم ان يكتب عنك شيئاً فاول ما يتبادر الى راس قلمه : الفسطان والحلى والقبعة كانك خشبة بدون قلب وبلا دماغ ، لا يرى الناظر اليها غير الاثواب التي تسترها . اما انا فلا ارى نتائج الاشياء قبل ان اجتهد للوصول الى مصادرها ولهذا انظر الى قلبك . فياسيدتي من كنت واين كنت ، على مقعد الحرير او على الحجر القاسي ، ابنة المثري او ابنة الفقير ، انت دعامة التهذيب في الوطن وما اشد حاجة الوطن الى تهذيب رجاله . انت نقطة الدائرة في كل امنية تجول بافكارنا وانت النتيجة التي يرمي اليها الكون بحركته المستمرة فان

تصبب عرق على الارض فمن اجلك يرتوي التراب ، وان سالت الدماء في كل مطلب فمن اجلك تسيل الدماء ان وجد قاتل وسارق فذلك من نتائج سطوتك وان قام مصلح وارتقع عظيم فذلك من اغراضك ووحي المكارم عن مهبط قلبك ٠

ضعي ايتها المرأة يدك على قلبك فهو يخبرك بما تتوه فيه الاقلام من حقيقة اهميتك في الوجود ٠ وارجعي ملقية معي نظرة المتامل في الوسط الذى يحتاطك لنرى اذا كنت تقومين بما تنتظره منك الانظار الشاخصة الى تقدم البلاد ٠

« انت كزوجة » ٠ رابطة الزواج ودعامته واحدة ٠ الحب ٠ فهل انت تحبين زوجك ايتها الامرأة السورية ؟

لو كنت مضطرة للجواب على سوألي بصوت عالٍ يسمعه الكل لقلت بلا اقل تردد نعم ٠ ولكن جوابك سيخرج من قلبك فلا تسمعه غير نفسك وانا على يقين بان هذا القلب يدفع كلمة : لا ، وهو يخفق ضعيفًا بين الخوف والرجاء ٠

ذلك لان الحب نفسه له رئتان وقلب له هوا يتنفسه ودماء تحييه له الثقة مقام الدم والاعتبار مقام الهواء وانت لا تعتبرين زوجك يا امرأة سوريا بل تخافين منه انتِ على غير ثقة من وحدانية امياله ولهذا قد اصبحت ثقتك تظاهرًا كاذبًا كتبت العبودية عليه عنوان الزياء ٠ في كل بلاد الله حيث بقيت الالفة على طرزها القديم

وحيث قطعت مرحلة التطاول الى الامام وارتكزت على نظام معروف نجد النسا على حال يخولهن حق النظر الى القلب واتباع عواطفه اما هنا حيث يقوم الجهاد بالحياة دون نظام ودون اقل ترتيب اقتصادي حيث التاجر يكون صانعاً والصانع تاجراً الشاعر ماسك دفاتر والتاجر صاحب جريدة حيث يندفع الكل الى الامام ويتقهقر الكل الى الوراء . هنا . قد استتب التقلقل والاختلال حتى ضاعت سعة العيش لدينا واصبح الغني فينا يئن من وطأة الفقر ويشكو الضيق والمسكنة فاصبح الرجل لا يتبع امياله بالعمل وكلنا نعمل بلا لذة ..

الرجل يخلق وفي اقصى عواطفه ميل خاص يجب ان يكون اساساً لاعماله وفي نفوس ابناء سوريا نجد اثر تلك العاطفة اشد منها في نفوس كل الشعوب ومن اجل هذا نرى الشقاء ضارباً اطنابه ما بيننا . ذلك لان الفتنا خرجت عن نظامها القديم ولم يتسنى لها الدخول بنظام جديد يلائمها فاصبح رجالنا كلهم بلا مركز حقيقي كاعضاء مختلفة عن مركزها تتألم ولا تجد للوصول الى محجتها سبيلاً . واذ نحن على ما وصفت فمن البديهي ان نراك مدفوعة كالرجل بقوة الضرورة وضغط الاختلال الى دوس عواطفك وسماع صوت الفكر الحاسب دون نداء القلب المحب . انت يا امرأة سوريا فتشت على رجلك وهتاف الحاجة وضرورة الالفة يملي عليك كما يفتش هو على

اعلاء شانه بالمادة خانقاً صوت موهبته دائساً على الاستعداد الذي اصبح لديه مورد عذاب بدل ان يكون مورد اللذة والسعادة ٠ اجيبي يا امرأة سوريا ٠ الم تكن الاساور والاقراط قائمة مقام كنز الحب يوم زواجك ؟ اما كنت مخيرةً بين شاب فقير وكهل غني فارتعش قلبك المحب امام اللذة والاحتياج فارتاح دماغك المفكر امام الضحية والسعة ؟ ٠ ٠ ٠ ٠ اليس ان جسمك كان يتنعم على على الحرير وقلبك جريح يرسل قطرات الدم فلا يراها غير الله ؟

ارجعي معي الى الوراء يا زهرة سوريا وتذكري جهاد الصبا وضغط التمدن والحاجة على روح الطبيعة وقوى الوجدان ، افتكري بحالة نفسك من قبل وقابلي بينها وبين حالة اليوم واخبريني اذا كان صرح سعادتك لا يتزعزع بين عواصف الحياة وهو مرتكز على اساس متقلقل ، اخبريني اذا كانت الايام تمكنت من محو سوء التفاهم الذي وجد منذ البدء بينك وبين الذي تستندين على ذراعه ٠ تبصري ملياً واخبريني عن ماهية الرابطة التي تضم ذاتك مع ذات بعلك ٠ وان كنت تضيعين في مهامه عواطفك فاسمحي ان اسالك هذا السؤال ٠

افترضي ان جنح المسكنة والشقا تدلى من عالم الغيب مرفرفاً فوق بيتك ، افترضي ان زوجك يبيع حلاك وقد تعرى كل شيء حولك من كل لامع يبهر وثمين يعجب فهل تجدين مقام المفقود شيئاً؟ الا تنادين اذ ذاك بالويل والثبور ؟ الا تنظرين الى زوجك نظرة

الاحتقار والبغض ؟ نعم يا اختي ان الفتر الذي لا يولدُ من طبيعته غير ضيقة وتعب في القلوب المحبة لايمكنه الا التربع على قلبك الخالي من الحب ومن حوله كل جند الشقا والحرب والويل • وليس ذلك من لوءم في طبعك كما يخال لذوي الافكار السطحية ليس ذلك من فساد بروحك ايتها الكائنة المعذبة بل هي نتيجة الاشياء وضرورة النتائج المماثلة لمباديها •

انظري الى الموءمن بالله حينما تتوالى عليه ضربات الزمان كيف يستغني عن المحسوس بتلك القوة الكامنة كحبة الخردل في قلبه لتعطيه الحرارة في بارد الدهر وتنمو بالامل القوي على تربة اليأس وقطع الرجاء • رددي ابصارك على الملحد الذي تملي قلبه الامال بما يرى تاملي بحاله وهو ساقط تحت خسارة جزئية وانظري الى قنوطه وهو امر الدمع المتساقطة من جفنيه ! تأملي قليلاً بهذين الحالين تجدي حلاً لما يتعجب منه الناس فيك •

الحب إذا الزواج كالايمان امام الدهر • وكما ان الملحد لا يشعر بنقص في وجدانه ما دامت السعة تحتاطه والراحة تجول حوله هكذا انت ايتها المرأة لا تشعرين بغياب الحب الهك الثاني الا حينما تسقط كبرياؤك مع مجالي الابهة التي تعشقينها لانها وجدت قلبك خاليًا من ملاك الحب فسطت عليه •

ايام السعة والبذخ تحبين زوجك او بالحري تتناسين برودة قلبك

نحوه ويوم الشدة والضيق تطلبين الاستناد الى ما يفوق الطبيعة ، تريدين الالتجا الى اله الزواج وتفتشين عليه فلا تجدينه ٠ حينئذٍ عند اقدام الكبرياء الجريحة والاباطيل الممزقة لدى الاقراط الباءة والاساور المفقودة تضعين يدك علي قلبك فتشعرين بانه ميت كالجنين المنتن في احشاء امه ! ! علاقتك بالرجل مادية محضة يا امرأة سوريا وليست علاقته بك باشرف من هذه ٠٠ انت تدفنين القلب في رموس الامجاد الباطلة اما هو فيجتهد ان يتيم قلبه من الموت بقوة الجمال ويبعث نفسه الراقدة على مضجع السكون بقوة الزخرفة وطلاء الشخص المحبوب ٠ انت لا تبغضينه لانه يخدم فيك ضعف الانثى ودلالها وهو يحبك لانك آلة لهوه وملجا جسده المتعب من جهاد الحياة ٠ :

اهذا الذي جمعه الله كيلا يفرقه انسان ؟ اهذا هو الاتحاد الذي يجب ان يسمو على المادة ويهزا بالمسكنة والالم والشقاء ؟

لله ما اشد ضغط المادة على الروح وما اثقل الانسان على نسمة الازل التي تحييه ! !

لا اعلم من انت يا من تقرأين هذه السطور لا اعلم ما هي طبقة نفسك ولا ماهية معارفك من العلوم البشرية لا اعلم اذا كان كلامي يدفع روحك الى الانحناء علي ذاتها والتامل والاعتبار ولربما انت الان تهزين راسك بقوة الشك قائلةً :

انني احب زوجي لان اساس زواجنا الحب وما هذه العبارات

الا تخيلات شاعر يري كل شيء قتاماً .

اذا كان هذا حكمك على ما ترأين ايتها السيدة فذلك لانك قد تروجت شواذاً عن القاعدة السورية. ذلك لانك بموقف نادر لا يقاس عليه . انت صحيح واحد بين الف مسموم وطبيب الادب يتبع اثر سيده الذي جاء من اجل الاعلاء والمسقومين. اتركي هذه المقالة لسواك وان كنت كبيرة النفس في سعادة حبك فاقرأي هذه الكلمات لترددبها على مسامع من حولك ممن يبكين وانت تتبسمين .

انت ايتها القارئة التي اكتب لاجلها هذه السطور يخال لي ان علي اجفانك دموعاً ماطرة بعد هيجان الزوبعة في قلبك . لقد انحنى رأسك علي نهدك المرتفع كالامواج تحت العاصفة وسار الدم السوري القوي بشدة في عروقك وها ان روحك الجريحة تتململ في قيودها وتريد ان تتمرد . .

وقفةً ايتها الروح المتمردة : انني ابضع الجرح لاخرج منه الدماء الفاسدة لا لادخل اليه السم .. الزواج هو رأس شرائع البشرية فلا يمكن قطعه حتى ولو امتلأ صديداً وتقيحت اهم اقسامه . لا يجب ان يقطع الراس بل يجب ان يداوى . اذ فسدت يدٌ او رجلٌ من جسم الانسان فقطعها ينتج الشفاء امـا قطع الراس فوراه الموت . في البلادالراقية او المهمه القفر حيث يسود الالفة نظام مادي مقرر . اذا فسد زواج من بين الف وقطع فمي الامر نظر يحتمل البحث

وللفيلسوف الراقي جبران افندي خليل جبران حق برفع صوته اذ ذاك اما هنا في الالفة السورية حيث لا يغرد قلب واحد حتى نسمع الانين مرتفعاً من الف قلب ، حيث لا يوجد زواج واحد بني على الحب حتى ينطح بصرنا الف زواج دعامته اللؤم والمال والتعصب والجهل ، هنا ذلك الرأس الذي يشمل طيه كل الرؤوس قد امتلأ صديداً وضربته القروح فما يجب ان نفعل ؟

انادي بما نادى المفتكر الرائع جبران و نقطع كل الرؤوس لتسقط الفتنا باسرها على حضيض الفحشاء فيأ كلها دود الفساد حيث لا يرجى لها بعث ولا حياة ؟

ايتها المرأة اذا كنت قرأت « رواية وردة الهاني » قبل ان تقع ابصارك على هذه السطور فاول ما يطرأ على فكرك هو الاقتدا بها بكسر قيودك المقدسة والتحرر من ربقة عبوديتك الشريفة ٠ وليست هذه النتيجة التي اريد الوصول اليها لانني لا انادي باستعمال دواء هو اشد هولاً من العلة لا اريد ان تكسر السلاسل بل اريد ان اعلم الاسير الباكي كيف يحرك قيوده لتسمعه رنيناً مطرباً ، انا لا انادي بهدم السجن الذي قدسته الشريعة ورضي به السجين ولا اطالب ان املي سوريا باطفال بلا ام وبنساء بلا احياء ٠٠٠ بل اريد ان اقول للمرأة المعذبة بان في فوادها ينابيع عواطف لا تنضب وانها تقدر ان تخرج منه ما يخفف قيودها ويذهب جدران سجنها ، ان فقدت الجنة على

الارض بفقدان الحب فقد بقي بوسعها ان تحول وادي الدموع الى مسكن عفاف ووقار. الى مقر سكينة وسلام ٠

بكل زواج رفرف عليه الويل وضرب فيه سوس الشقا يوجد ضعف بالثقة والاعتبار اكثر مما يوجد برودة في الحب٠ واذا برد الحب فما يحتاج اكثر من نظرة لامعة وكلمة ذائبية لتدب في ثلجه حرارة الصيف ولكن اذا زالت الثقة ومات الاعتبار فالطامة كبرى والصعوبة اشد ٠ مركز الحب في العاطفة في القلب وما اخف قلب الانسان واغرب تقلباته ، كل سنة كل شهر بل وكل يوم ، اما الاعتبار والثقة فمركزهما في نور الوجدان في الفكر في الدماغ في ميزان الاعمال البشرية ومبدأ الضمير الحي ولهذا لا يمكن ان يوجد حب يثبت بوجه العاصفة ما لم يكن كشجرة عظيمة اصولها في الدماغ وازهارها في القلب ٠

فيا امرأة سوريا ان قلبك خال من الازهار التى تعطي الحياة لان اصول شجرة الحب ضعيفة في دماغك وافكارك لا ترطبها بذلك السائل الذي لا يكون الانسان بدونه انساناً وهو الارادة ، لقد جار عليك الرجل من وراء جور الوسط الاقتصادي عليه فوضعك موضع الالة التي لا عقل ولا ارادة لها فرضيت بما اراد ، زينك بالاقراط والحلى والفساطين كي يغوي بك الحيوان الذي يلذ به ويميت روحك اللطيفة التي لم يتعلم ان يفهمها بعد ، رضيت بهذا

الهوان ولم يقم اجدليناديك بان الرجل اضلك وانت مسرورة بالضلال كالشارب من المبرد ينهل من دمه ولا يرتوي ٠

لو كنت انا من جنسك وكنت عقيلةً ذات بعل واتاني الرجل بالملابس الفاخرة والحلى الثمينة ليجمل بها جسدي ، لو رايت بعينه بريقًا حين لبسي لهذه الحلى ولم يكن هذا اللمعان من قبل لرميت الفسطان بوجه الرجل وقلت له :

اذهب فانت تحب جسدي فقط وانا لي قلب تجول فيه الروح وانت تحتقر روحي كانني حيوان ٠٠٠

اذا كان الرجل يتعامى عن نفس المرأة ولا يريد ان يرى بها غير لذة جسمه افليس من واجبات المرأة ان تعلن قوة تلك النفس بالصبر والثبات والتعقل واحتقار الامجاد الكاذبة ؟ اذا كانت المرأة بكل ظرف وحالة تبرهن للرجل عن تعلقها بالزخرفة وتحوّل عاطفتها الى كل ما هو لامع وكاذب افلا يعذر الرجل اذ ذاك اذا حسب الجنس اللطيف في بيته اناءً او رياشًا وضع للزخرفة والتبرج ؟ انت يا امرأة سوريا تشكين من رجلك امرين اولهما عدم اندغام نفسه بنفسك والثاني كسره لقيود الامانة وهو يشددها عليك ، تشكين منهُ وتبكين وقد عمدت الى مداواة العلة مرارًا فلم ينجع الدواء ٠ لماذا ؟ ذلك لانك ضللت بتشخيص العلة ولم يسدد نظرك لمعرفة مركزها ٠

تريدين ان تدغمي روحك بروحه فتعمدين الى التزلف اليه

بالدلال والغنج وقد غرب عنك ان زمان التوله قد مضى وقضت روحه مع احلام الشبيبة المتوارية وراء العمر • يخال لك ان التحبب يولد اندغام الروح فانت على ضلال بظنك وانا اقول لك بانك كلما تحببت الى زوجك بالدلال فانما انت تريدين اقتراب جسمه لجسدك وتمددين المجال الذي يفصل عاطفتك عن عاطفته فاتحة هوة هائلة بين روحه وروحك •

اعلمي يا اختي بان ارواح البشر متماثلة من حيث الجوهر فقط وهي تختلف بعاطفتها من حيث القوى التي ترجها في جهاد الحياة • وما الدنيا الا مدرسة النفوس تمر بها اشباحاً لتخرج من الباب الاخير وفي نفس كل منا ما انطبع عليها وكوّن ذاتيتها • النفوس مخلوقة في الازل لحياة الارض والارض تخلقها خلقاً جديداً للابدية • ومن اجل هذا نجد الارواح المترامية بالاجساد على هاوية القبر تسير كلها بالحياة على نسق واحد من حيث المادة ولكنها تنقسم الى ما لا نهاية له من حيث الداخليات المكونة وسم النفس • فمنها من تتلائم لبلوغها درجة متشابهة فتتفاهم ومنها من تلتقي بالمادة وبينها وبين رفيقتها بون عظيم من حيث الداخليات فتتدافع بخشونة والم فلا يمكن لها ان تتفاهم •

وهذا التدافع والانضمام نشاهده بكل مظاهره بين رجل ورجل ولكنه اشد وضوحاً واكبر مفعولا بين الرجل والمرأة • ذلك لان

نفس المرأة وان تكن من المصدر الذي خرجت منه نفس الرجل فهما مختلفتان بالنوع وان توحدتا بالجنس ، ليست الامرأة انثى بالجسد فقط فهي امرأة بنفسها ايضاً وليس الرجل ذكراً بجسده فقط فهو بنفسه ايضاً . ويتضح هذا من اهتزاز روحين يتقربان الى بعضهما بقوة الحب الجنسي قبل ان تتنبه في الجسد قوة الجنس الحيواني ، فان الاضطراب الذي يشعر به اليافع حين اتحاد روحه بروح من يهوى لهو مخالف بالنوع عن الاضطراب الذي يهز نفسه عند لقيا الصديق فمع هذا يشعر بارتياح الشيء الى مماثله ومع تلك تشعر الروح (الرجل) الايجابية بانجذاب للروح (المرأة) السلبية فتتولد قوة التجاذب من انضمام مختلفتين .

ولولا كون الرجل رجلاً ابدياً بروحه والمرأة امرأة بروحها الابدية لكان اختلاف الجنس محصوراً بالجسد الترابي فقط وخلت الارض من ذلك الانعطاف المتين العرى الذي لا يمكن ان يتولد عن غير التجاذب في الانفس المختلفة جنساً والمتلائمة عاطفةً .

حب الحيوان يتولد عن وجوب التناسل الارضي فهو زائل ، الحيوان يحب بفصول معلومة من السنة اي شبيه له جمعته به الصدفة فميله الغريزي بالمادة اقوى من ارادته اما الانسان فحرٌّ بعاطفته لا تحكمه ظروف ولا تقيده فصول لا يحكم الجسم على روحه باميالها لان الانسان خلق وفي ذاته قوتان قوة حب الجسد لتتنازع البقا

وابقاء النوع وقوة حب النفس بترقية النفس للابد بالعواطف السامية .
ولهذا لا بد لكل انسان ان يشعر بان في عاطفته حبين حبٌ للارض
وحبٌ للسماء .

اخاف ان اتعب دماغك يا امرأة سوريا بهذه الفلسفة المتعبة
وكنت احب ان اقرر مبداي هذا بالمقدمات والنتائج الطويلة ولكن
يكفي الان انني اوضحت لك وجود حبين في هذه الحياة ولو كنت
اخاطب الرجل لكنت لا ارى بدا من الاستناد على الحقائق العلمية
اما انت فيكفيني لاقناعك ان تناجي قلبك المركب من تراب
ومن روح فيقول لك انه احب بالروح مرة ولم يسلم من حب الجسد
احيانا .

واذا انت على ثقة من وجود هذين الحبين فاسمحي لي ان اسالك
عن ماهية الحب الذي يربطك بزوجك .

إسمحي ان اجاوب عنك وهذا الجواب هو الجرح المؤلم الذي
سيخرج نقطة الدم السوداء الكامنة في قلبك .

ان رابطة زواجك على ما هي لهي ادنى رتبة من رابطة الاتحاد
الذي يقرب الحيوان لحفظ النوع . الحيوان يتبع البداهة وهي شريعته
فهو يتبعها اما الانسان فشريعته غير هذه ومع ذلك فهو يقتبس بداهة
الحيوان ولا يكتفي باخذها على ما هي بل يدفعها الى ابعد انحطاط
بادخال التجارة عليها . لان من بين مخلوقات الله كلها لا يوجد غير

الانسان تاجراً ومضارباً ومحتكراً لبعد المحجه التي تصل اليها انانيته فالزواج الخالي من اتحاد الروحين لهو اسقط من اتحاد الحيوان لكونه لا يرتكز على حب الجسد للجسد فقط بل يرسو ايضاً على حب الامجاد الباطلة والزخرفة والتبرج والطمع والكسل وكل معائب البشر وسفالاتهم ، هو مدعوم بفساد في الرجل من جهة وبزخارف المرآة وانانيتها الكاذبة من جهة اخرى •

الرجل يجود بماله لينعم جسده بقتل روحه والمرأة تجود بجسدها بالتدليس والمراوغة قاتلة عواطفها ، اذا وجد الرجل برودة في حب شريكته فهو يعمد الى الاطالس والحلى متقوياً بذلك شر المرأة وضلالها وهي اذا لحظت منه فتوراً تسرف بالدلال وتبذر بالخلاعة مفتكرةً انها تداوي الرجل فتزيده ولوعاً بالتهتك وتقتل نفسه بالتدريج حتى يصل الزوجان الى درجة لا يظنان بها ان لها نفساً •

اغلب الزيجات السورية منضمة بقوة الجمال متدسية بشريعة المال وما بين هاتين القوتين لقد اصبح الزواج الشتي كسفينة محطمة تحمل العائلات التعيسة لتقلبها على امواج الغنى والفقر تحت رحمة الزوابع حتى واعصار الجمال وفقدانه •

ايتها العائلات السورية ما اتعس داخليتك ، حرب الاقتصاد المنهك القوى من الخارج وفي قلبك حرب الحيوان الذي يقتل الروح ويقضي على مبدأ التعزية الوحيد للانسان ، قلت لك يا امرأة سوريا

بانك تشكين من زوجك أمرين الاول عدم اندغام نفسه بنفسك والثاني كرهه لقيود الامانة وهو يشددها عليك وقد بحثت بهذا الداء الاخير بحثًا وافيًا بفصل خاص هو « الخائن والخائنة » ووجهت كلامي به للرجل لانه مخطئ بظن تتج عنه كل ضلاله فحاولت اقناعه بالبراهين القاطعة ليصلح نفسه ؛ اما الداء الاول فهو متأتٍ عن خطاء مزدوج يقترفه الزوج والزوجة معًا ولو تمعنا مليًا لوجدنا جرثومة هذا الخطاء متاصلة بالاكثر في قلب المرأة وعواطفها ولهذا اسمحي لي ايتها العقيلة ان اوجه كلامي اليك .

لقد بينت لك السبب الذي تتالف منه النفوس وتندغم به الارواح لتتفاهم واظهرت لك ضلال السبيل الذي تسيرين عليه وضرر الدواء الذي تستعملينه لشفاء العلة وها انذا اكرر لديك القول بعبث محاولة الجسد ان يكتسب محبة الروح انت تحسبين بالتبرج والزينة قوة تحول اليك عواطف الرجل فتعمدين الى الملابس المتنوعة الاشكال التي تاتيك عن موض اوروبا وانت لا تعلمين مصدرها الاصلي وانا اقول لك بان هذه الانواع بالملبس المكشوف الذي تحاول النساء به ضمور البطن وبروز الصدر وتضخم الردف انما هي موض تمخض بها دماغ المتهتكات فطبعن الازياء على نتائج امور اجل العقائل عن ادراكها . . . وقد رات نساء العالم المتمدن هذه الازياء ورأين رهطًا من الرجال يتبعون لابساتها فخيل لهن ان الجاذب للثوب والقوة للزي

فلبسن مثل هذه الازياء ولم يعلمن ماوراء الاكمة من الخفايا الهائلة ، وانت يا امرأة الوطن رأيت هذه الملابس فاعجبتك لان في قلبك الساذج مبدأ حب السطوة بالحب وقد ضللت بتحسينك الجسد دون الروح ، ضللت لانك تريدين مخاصمة العاهرة وهي من هذه الحيثية اقوى منك فمها بالغت بتقليدها فانما انت تقلدين ملابسها فقط ولا يمكن لك ان تقلدي المبدأ السافل الذي اوحى هذه الملابس . في هذا العصر الفاسد الذي ضلت به المرأة من جور الرجل وامست المرأة الضالة شبكة هائلة له لم يبق من دواء لحفظ عفاف الرجل سوى غلبة المرأة الفاضلة وانتصارها على المرأة الساقطة . فاعلمي ايتها السيدة بان زوجك معرض بكل يوم لقوة عدوتك واول واجب عليك هو الانتصار عليها ولكن كيف يجب ان تحاربي ؟

احترزي محاربة عدوتك بسلاحها فانك مهما بالغت بالتشبه لا لا تصلين الى مناهضتها ويوم تصل قوتك الى درجة قوتها ففي ذلك الحين تصبحين مثلها وتمتنع عليك وحدة الحب فيتحول مهد العائلة الى جحيم دائم ....

حولي كل قواك الى استعمال سلاح الروح فانه الضربة القاضية على عدوتك التي ماتت روحها وتحول جمال نفسها الى زخرفة باطلة .

اتركي زوجك يشعر بقوة غالبة فيك تنبعث عن نفسك كما تنبعث اشعة الحياة من نور الشمس المشرقة ، تعلمي ان تقاومي الشدة باللين

والقساوة بالحنان والتوحش باللطف ، تعودي ان تناهضي الكذب بالصدق والرياء بحرية الضمير واعلمي بان المشترع العظيم لما نادى بهذه الحكمة السامية قائلاً :

من ضربك على خدك الايمن فحول له الايسر . اعلمي بأن ذلك الفادي العارف بخفايا القلب البشري لم يطلب من الانسان الا ما يعزز الانسانية ، اراد ان يقاوم الشر بالخير لا ان تداوى الجراح بالجراح والفاسد بافسد منه .

اذا خانك زوجك فاول ما يخطر على بالك ان تخونيه ايتها الامرأة وما انت اذ ذاك الا خائنة نفسك انت منتقمة ولست مصلحة ، اذا جار عليك فاول ما يمر على بالك ان تنادي بالويل والثبور فتحاربينه بسلاح الفجور وكل خطوة يخطوها زوجك نحو الهوة تسبقينه انت بمثلها الى قعر الهاوية .

لا تمردي ايتها العقيلة ، لا تقولي انني ظالم بما اطلب ارجعي الى وجدانك واسمعي فهو يناديك بما اخاطبك به الان .

اذا كان اصلاح الفتاة موكول الى ضمير ابيها ، اذا كانت تربية نساء الغد ملقاة على عاتق رجل اليوم فاصلاح رجل اليوم لهو من واجب امرأته . الرجل يربي الطفلة ويوحي المكارم الى قلب الغادة ولكن حين تصبح الغادة عقيلة فاول واجباتها ترقية عواطف الرجل لان الرجل اشد التصاقاً بالمادة منها هو يجاهد في الفة سوريا الضالة

ولهذا فهو اقرب الى الفساد لبعده عن العاطفة المجرده . اذا وجدت ابنة ضالة فاحكم بضلال ابيها ولكنني كلما رايت رجلاً فاسداً فاول ما يخطر على احكامي ضعف في روح زوجته ووهن في عواطفها .

نعم ايتها المرأة انت مطالبة باصلاح زوجك ، اذا كان الرجل راس المرأة فالمرأة اعظم من الرأس لانها روح الرجل التي توحى اليه بالمكارم والانحطاط دوراً فدوراً . . . وروحك ان لم تكن ساقطة الى اخر ادوار السقوط فهي دائماً ارقى من نفس الرجل لان ابو ب الفساد كثيرة امامه وانت لا هاوية الا هاوية التبرج والولوع بالجمال الزائل امامك ، انت اقرب منه الى نفسك لان الرجل ملاصق في كل يوم للاباطيل يمشي في هذه الحياه مجاهداً في سبيل رزقه والكبرياء وحب التحكم والكذب والسرقة والاحتيال والخداع كلها تتبعه كجند الويل في معترك تنازع البقاء الذي جعله التمدن اشد وقعاً على النفوس من معترك الاسنة والصفاح .

بينما يكون الرجل تائهاً في مهامه اعماله وضغط المادة يلاشي بالتدريج عظمة وجدانه تكونين انت ايتها الامراة راكعة الى جانب السرير تقوين روحك من لمعات العالم الاعلى الذى يتجلى امامك مجرداً من بين اهداب طفلك الشاخص الى الحياة بكل مجد النفس وعفافها .

بينما يكون الرجل عاملاً بتجارته لاحتكار لقمة الخبز التي ينبتها

اخوه من الارض بعرق جبينه ، بينما يكون مدفوعاً بقوة الحاجة والتطاب سائرًا بالظالم الى البطر وبجاهل الويل الى الاختلاس والكفر تكونين انت ايتها المرأة تعدين بيتك لاستقبال ضنك الرجل وتحويله الى واحة ، لاستقبال ظامه وتحويله الى حنان وشفقة ، لاستقبال كفره وتحويله الى ايمان بين يديك وعلى شفاه ملائكة البشر وهم الاطفال . .

بينما يكون الرجل سائرًا في عرض الفلاة وعلى صفحات البحار يشحذ البتار ويعلي المدافع من سواد قلبه ليطلقها على اخوته مع نار شره تكونين انت ايتها المرأة جالسة الى سرير الجريح ضامدة جراحه بيدك ولفتات الحنان تسيل من مقلتيك مبرهنة له بانحصار الانسانية فيك وان الله خلقك هيكلاً تتجلى به روحه للانسان حينما يعميه الضلال . انت اذ ذاك تقولين له :

اذا كانت يد الرجل تضرب فيد المرأة تعرف ان تشفي ، اذا كانت قساوة الرجل تلقي العار على الانسانية فحنان المرأة يشتري ذلك العار ويرفعه عنها ، اذا كان ضلال الرجل وظلمه يقودان الى الكفر فضحية المرأة وعذوبة روحها يثبتان وجود الله .

هذه انت ايتها المراة فاعرفي من انت ، لقد قيل عنك ايتها المراة بانك افقدت الرجل جنة الخلد منذ البدء فمن ترى يثبت لنا هذه القصة المحجوبة حقيقتها وراء الاعصار الخالية . . . انا لا ارجع ثمانية الاف سنة الى الوراء لاعرف ما هو مقام المراة ازاء الرجل بل اذير انظاري

الى ما حولي فاتا كد بان المرأة هي تلك الحلقة الذهبية التي تربط الرجل بمافوق وهي اذا فسدت حلقة حديدية تربطه في اللجة . اعلم بان المراة كائين تقيده الارض بالرجل وروحه تجول قبل الموت في عوالم بعد الموت اعلم بان روح الرجل تغشيها كثافة المادة اكثر من روح المراة وانه اذا صعب على الرجل ان يرقي امرأة فاسدة النفس لطبقة نفسه فليس بالصعب على المرأة الراقية ان ترفع روح الرجل الدنسة الى طبقة روحها .

كلمة اخلاص حقيقية خارجة من صميم قلب المراة ونسمة مجد تهب من روحها تقدر ان تدفع روح الرجل المتاخره الى الطبقات العلوية التي سمح للارواح ان تتسنمها على هذه الارض .

الرجل لايمكنه ان يفسد امرأه فاضلة ويجرها الى السقوط ما لم يستعن بقوة الجن ويمضي السنين الطوال معالجةً بالاسترحام والقسوة وهو بعد العناء الشديد لايكفل لنفسه نجاحًا بقصده السافل .

اما الرجل فمهما ذاد فضله وارتقت نفسه فهو اقل مقاومة للشر من المراة . لفتة فاحشة تضرم النار في قلبه ، حركة نهد ، واهتزاز ردف تدفع نفسه الى شفير الهاوية .

سطوتك عظيمة ايتها المرأة لان نفسك اقوى من نفس الرجل وسلطتك تتبعه من جنب سريره حتى ما وراء قبره وتلازمه في عالم الارواح وفي الخلود .

اذا كانت روحك وروح زوجك لا تتفاهمان فذلك لان كل روح

يجولن بطابقتها وبعدها فهو يئن منك وانت تبكين منه .

اذا كنت تشعرين بان زوجك ادنى منك طبقة واقرب الى المادة فانزلي معه الى طبقته وبعد ان تتملك يداك بقابه فاشمري جناح روحك ايتها الملاك وارتفعي مع قبضة التراب الزائلة الى طبقة الحب الخالد الذي لا يزول تدرجي به رويداً الى حيث يصبح الحب عبادة والعطف تقديساً وحينئذٍ انظري الى نتيجة جهادك وضعي يدك على قلبك فيناجيك بكل اسرار الحب وامجاده فان المرأة تحب الرجل الراقي ولكنها تعبد الرجل الذي صار بفضلها راقياً .

واذا كنت ايتها المرأة منتفخة بالكبرياء وحب التبرج قاتل نفسك فاعلمي بانك عبدة اميالك اولاً وعبدة الذي يتبع تلك الاميال ثانياً اعلمي بانك ما دمت اسيرة هذه الساسف فلست امرأة بل انت حيوان ضال يسير الى الهاوية ومعه كل ما يحمل . ايتها المرأة انا لم اجد كائناً احكمته الاميال وتمكن من الحكم كل نفس تضغط عليها المادة لا يمكن لها ان تصلح ذاتها فكيف تقدر على اصلاح السوى ؟ ان الذي لا يحكم على نفسه فهو مخلوق للعبودية اذا كنت لا تحتقرين الخاتم والفسطان فكيف تريدين ان تنجلي روحك ليعبدها الرجل ؟ اذا كنت ترين كل جمالك بجسدك وتحولين كل قواك للتسلط بهذا الجمال فالرجل يحب هذا الجسد الذي تحصرين به جمالك ولكنه لا يتعلق بك ولا يفهم ان لك ذاتاً مستقلة . المرأة

التي لا تجد بذاتها غير طرف كحيل وخصر نحيل وثغر بسام تقدمها لزوجها فلتكن على ثقة بان هذا الزوج سيخونها باول فرصة تنفرج لديه . ايتها المرأة افهمي جيداً ما اقول :

جمال الجسد يجذب الجسد الى كل جمال مشابه به فكلما قدمت لرجلك تحسيناً جديداً تنفتح قابليته فيركض وراء كل حسن اينما وجده . المادة لا تشبع . . . الذوق الترابي متشعب الى ما لا نهاية له واعصاره تهب من حيث لا ندري . . . جمال الجسد يسكر ويزول اما جمال الروح فيؤثر على الروح والنفس المحبة اذا فهمت كيف تسطو على نفس من تحب فهي تعطيها السعادة وتربطها الى الابد .

الرجل يمكن ان يحفظ عاطفة الصداقة لخمسين رجل مثله برتبة واحدة لان الارواح متشابهة بهم نوعاً وجنساً والمرأة يمكن لها ما يمكن للرجل من تعدد الصديقات اما الحب المتاصل ما بين نفس رجل ونفس امرأة تتفاهمان فذلك حب لا يقبل شركاً لان السلب والايجاب من اصل واحد يندغمان اندغاماً لا يقبل الانفصال . وكما ان التعقل الواحد لا يمكن له ان ينتج ارادتين مختلفتين هكذا لا يمكن لروح الرجل ان تحب امرأتين . وكما ان الارادة الواحدة لا يمكن ان تنقسم لتعقلين مختلفين هكذا المرأة لا يمكن لها ان تحب اكثر من رجل واحد .

انت مخيرة ايتها المرأة بين حب الجسد وحب الروح وكل حب مرتكز على الجمال وقد عرفت ماهية الجمالين فاذهبي الى الارتماء

ايهما تشائين . قوي عواطفك كل يوم بالتدرب على كل ما هو رحمة وحنان ومغفرة ونكران ذات . ترفعي عن السفاسف والحدة التي تعلن ضعف العقل فلا يطول حتى تري نفسك محلقة في فضاء جديد يمدك بقوة عجيبة تشدد روحك الى رفع كل من حولك لطبقتها فيسود التفاهم بينك وبين رجلك وتكون العائلة مديونة لك بسعادتها .

ايتها السيدة لا تعترضي عليّ مدعية بان زوجك بالغ درجة من التقهقر تتلاشى عندها كل محاولة سامية . انا اعلم بان الخير اصل لانه ازلي والشر طاريْ حوال لانه عارض لا كيان له بذاته ولهذا لا يمكن ان نجد على الارض كائنـاً نزع منه مبدا الخير الى النهاية فتشي عن اسباب الشر في رجلك اطمحي الى معرفة مبدأ الشقا ولا تتلهي بالبكاء على نتائجه فقط . ليس الشر الا مصيبـة على عاتق الشرير تتمرر روحـه من حملها . ليس سكير الا ويتحرق بعد سكره . ليس محب للتهتك الا ويسطو عليه خمود تتالم الروح منه حين يتـلاشى الشبق بعد جهاد الاجسام . ليس سارق الا ويود الا يكون كذلك . ليس قاتل الا وترتجف روحه طي جسده المتعب . ليس متكبر الا ونفسه تتمرر من حمل كبريائه .

كل شر في الانسان له حالتـان حالة الهياج وحالة الوهن والهمود .

لم يذكر لنا التاريخ رجـلاً اعظم شراً من نيرون العاتي وكان

هذا الرجل مع كل شره في حياته المملوءة بالمظالم والمغموسة بالدماء يطرح احيانًا باكيًا عند اقدام العرش وفي نفسه كل المصائب التي كان يلقيها على كاهل الشعب بالعبودية والموت . فلو وُجدت في تلك الفترات نفس سلبية راقية . نفس امراة تعرف كيف ترقي الارواح المنحطة الى طبقتها لتحولت صفحة التاريخ السوداء التي تختم ملك الرومان الى صفحة امجاد وعظمة وارتقاء .

في مثل هذه الفترات يجب ان تتجلى روحك بكل عظمتها ايتها المرأة . لا تحاولي اصلاح زوجك وهو ثامل بشره لان مثل هذا الاصلاح يستوجب العنف والصرامة وانت اذ تحاولين الحصول على هاتين الصفتين لا تبلغين القوة اللازمة لمعارضة الرجل بل تفقدين قوة عذوبتك وشدة روحك . انتظري حتى تسقط الزوبعة وحين يسطو الهمود على زوجك بمفعول رد الفعل تقدمي حينئذٍ واظهري النصح بلا تعنيف تاسفي معه على سقوطه ولا ترمي خطيته بوجهه كفساد لا يزول لان كبرياء الرجل منتبهة دائمًا لتعضد كل ما ياتيه حتى الشر . فاذا جرحت هذا القسم من محبة الذات البشرية يتحول ندم الرجل الى عنف وصلف ويبدأ ان يبرهن لك عن صلاح الشر فيصيّر الاسود ابيض ويحول الحسن الى قبيح وهكذا لا يلبث ان يقنع نفسه بالحجة التي يدافع بها فيدخل الشر الى روحه ويتأصل بها فلا يزول . اذا كان الضلال خطاءً في زوجك فلا تحوليه بتعنيفك الى صفةٍ ملازمة . . . كوني

حكيمة وارفعي الوهن والزيغان من روحك اولاً وحينئذ كل كلمة تنطقين بها يكون لها دوي في نفس من يسمعها ، ان هذه العوالم السابحة في الفضاء بنظام ابدي لهي محركة بقوة روح واحده تنبعث عنها كل الارواح المستقلة الى امدٍ وليست القوى المادية الا مظهراً او خيالاً لارادة تلك الروح السامية التي بدونها لم يكن شيء مما هو كائن .

فاجتهدي ايتها المرأة ان ترقي نفسك الى الاوج الاعلى لتلامس قوى الروح الاولى فتصبح قوتك مطلقة وارادتك صالحة واجبة الاتمام على كل من يشعر بها .

ايتها المرأة اعلمي بان التفاهم هو الذي يولد الحب الاكيد ولا يخال لك بان الحب هو اصل التفاهم . انظري ما حولك وتمعني تجدي اكثر من شاب وفتاة كان اصل زواجهما حب مولد عن نظرة وابتسامة وسلام فما مرَّ على اتصالهما ردح من الدهر حتى تحول الحب الى نفور وحارت اللذة عذابًا اليماً . ليس التفاهم ابن الحب بل الحب نتيجة التفاهم فاعرفي ان تميزي بين الاصل والفرع ، كوني على ثقة بان وجود روحين في طبقة واحدة من الرقي ينتج الحب الجسدي اضطراراً ومن الشواذ ان يقترب جسدان بالحب وينتهي اقترابهما بالتفاهم الروحي . النتيجة لا تصير مصدرًا لاصلها فاجتهدي ان تجمعك بزوجك طبقة واحدة من الارتقاء وحينئذٍ تكوني اتممت الواجب الذي تنتظره الانسانية منك وتناديك به الوطنية وقد حصرت بك نصف امالها .

ايتها العقيلة ان وجود التفاهم قبل الزواج لهو خير من الاجتهاد لايجاده فيما بعد . والوقاية افضل من العلاج ولكن هذه الالفة السورية المقسمة باوهام العائلات وقوة المال . هذه الالفة التي رسا ترتيبها على الظاهر واختنقت بها الداخليات في النفوس لهي بعيدة جداً عن تقريب الذاتين المتفاهمتين . وقلما تتفاهم روحان في بلادنا الاَّ وتقف بينهما الحواجز الهائلة سداً منيعاً . لا يوجد شاب واحد في سوريا يمكنه ان يترك روحه تجول بين غاداتها طالبةً اختها للانضمام وايجاد السعادة . كل شاب منا قد احب مرةً وتفاهمت روحه مع من يحب فجأت قوة المادة تقطع الرباط وتجرح القلب رامية الروحين على حضيض اليأس والقنوط . لا يوجد غادة في سوريا يمكنها ان تتبع اميال روحها وقلما نادى قلب غادة بالحب دون ان تخنق صوته يد الحاجة وضغط الوسط المادي .

نحن الان نجاهد في الفة ارتكز بها كل شيء على حرب الاقتصاد السياسي فاصبحت كل حاجات النفس مسابقة بقوة المادة ولهذا يجب على المفكرين الذين يتألمون لجرح العواطف وبيع الارواح ان يداووا العلة من اصلها و يشتغلوا لرفع الضنك الذي يخنقنا لرضوخ حياتنا المادية لعبودية الاجانب وحين تتفرق قوى الحياة بالتناسب ما بين طبقات النفوس لا بحسب طبقات المال فحينئذ يمكن للارواح ان تتفاهم قبل الزواج ونكفي المرأة مؤونة الشقا الذي تتحمله والعظمة

التي نكلفها اياها لمداواة العلة الهائلة .

اما الدواء الذي يصفه المفكرون ايتهـا المراة السورية دواء التمرد وكسر القيود فذلك حكم يشابه مبدأ الفوضويين الذين يريدون نزع السلطة من بين الناس فلا يصلون الا لنتيجة واحدة وهي قتل افراد معدودين واهلاك القاتل نفسه . . .

هكذا انت ايتها المرأة اذا تمردت على رباط الزواج فانما انت جارحة لمبدأ الشريعة جرحًا واحدًا ومثخنة نفسك بالف جرح . لم نر لليوم امرأة تركت زوجها في سوريا ولم تتلقفها الايدي الغريبة مرارًا لتطرحهـا اخيرًا الى الهوة الهائلة الفاغرة فاها لابتلاع الازهار الجميلة التي اضلها الريح ودفعتها عواصف التمرد الى سبيل الشقاء .

ابقي ايتها المرأة في بيتك واعلمي بان مملكتك محصورة ضمن هذه الجدران التي اخترتها لك مسكنًا فان كان هذا المسكن خاليًا من الحب فذلك لانك ساعدت الرجل على طرح الروح من نوافذه . اذا كان هذا المسكن مملوءًا بشياطين الغيرة فذلك لانك رضيت من الرجل حبه لجسدك وحصرت كل جمالك بالظواهر الكاذبة .

مهما كنت محرومة من الجمال ايتها المرأة فمن السهل ان تصيري اجمل من اجمل امرأة . اذا كانت قامتك محدوبة بلا ارتفاع ولا تناسب فالحركة التي تعطيها الروح الراقية للجسد تجعل قامتك هيفاء وخطواتك كلها مجد وعظمة حقيقية . اذا كانت عيناك صغيرتين بلا معنى

ولا قوة فحين ترتقي روحك يخرج من بين اجفانك نورٌ يكسف نور الشمس ويدخل الحياة بمن حولك . اذا كان فمك واسعًا ضخماً بلا اقل جمال فحين ترتقي روحك تمر على شفاهك ابتسامة تجعل المصائب سعادةً والظلام نورًا باهرًا .

لقد سمعت مرارًا رجالاً يقولون : ان فلانة ليست جميلة ولكن بها شيئًا لا نعلم ما هو يقبض على روح الرجل فيجعله اسيرا .

فالى مثل هذا الجمال قد حولت ابصارك يا اختي وهذا هو الحسن الذي علمتك ان تكتسبيه .

اول شرط لبلوغ الجمال هو اهمال الجمال حتى يتولد حسن النفس ويعود منصبًا من الداخل الى الخارج فيصبح جمالا حقيقيًا يخشع امامه الناظر وهو لا يعرف ماهيته . . . .

اذا قمت بكل هذه الواجبات التي خططتها لك وبقي الرجل مستمرًا على غيه ، اذا بقيت روحه جامدة لا تشعر فذلك لان داءه داءٌ عياء لخلوه من كل عاطفة وسقوطه الى درجة الحيوان ، ذلك لان روح ذلك الرجل لم تعد مرتكزة على احدى طبقات النفوس البشرية ويخال لي انها اتت الى العالم لتخرج منه محملة بالرجاسات والدنايا التي تكوّن ذاتيّة حياتها الابدية . ومثل هذا الرجل يندر وجوده ان لم اقل يستحيل وان كانت الاقدار قد القت عليك مثل هذه المصيبة الهائلة فان الحياة لم تحرمك من موضع تسكبين عليه حبك المعذب ،

انحني على السرير ايتها الام ورقي نطفة حياة الرجل الذى تمرد على مجدك السماوي ، علّمي الانسان يفهم اتحاد الارواح فان الولد الذي لم يحب امه لايقدر فيما بعد ان يدغم روحه بروح جنسك السامي .

انت ضحيةُ رجل لم يستمد من عيني امه ذلك الشعاع الذي يرثه الانسان ويتركه لمن بعده الى نهاية الدنيا . لست ضحية الرجل ايتها العقيلة التاعسة بل انت ضحية ام مثلك فاعدي لاختك في الجنس ولداً لايتمرد على نور الحياة التي يبعثها الله من جنانه الى الارض متالقة من بين اجفان الملاك الذي يعزي الانسان ويذكره بالابدية .

واذا حرمك الله من الطفل وكانت روحك ارملة وكان زوجك حيواناً تسلطت الانانية عليه فلا يشعر بوجود شيءٍ غير ذاته ، اذا كنت بهذه الحالة ايها الملاك الشهيد وحاولت عبثًا ان تتفاهمي مع زوجك فاعلمي بان روحك المرتقية هي حرة في طبقتها السامية كالهواء على جبال صنين . انظري من علو مجدك الى الحيوان السافل الذي يملك جسدك وتاسفي على مخلوق يكفيه قصاصاً انه محروم من تعزية انضمام الارواح وليس الجحيم في الابدية غير انفراد النفس مع شرها وحرمانها عذوبة الارتقاء . اما انت فليست نفسك منفردة في طبقتها هي تلامس الخير والحق وحين تلمس روح زوجك الساقطة فحينئذ تنبعث من ذلك التقارب شرارة تنير قلبك وتحرق قلبه . هي شرارة الضحية السامية التي ما برحت منذ بداية العالم تجول في كل طبقات

العالم ، عند اقدام العروش وفي زوايا القصور والمحاكم والكنائس والسجون ، على مناضد الكتاب ومن فوق منابر الخطباء ، هي شرارة الضحية التي لمعت منذ عشرين قرناً بكل قوة النور من جنب الفادي فحملتها كلمته المقدسة من قرب الموت لتدخل الحياة في الموت ، تلك الكلمة التي يجب ان يتعلمها كل عظيم وهي :

اغفر لهم يا رب لانهم لا يدرون ما يفعلون .

ايتها الامرأة لك اسوة بالنفوس الكبيره التي لم تفهمها صغارة الوجود فسلام على روحك لاني اعبد بها اله الضحية .

.. ..

لقد كثر لغط الكتاب في تحديد واجباتك كأم ايتها المرأه . امتلات الجرايد وشحنت الكتب منادية بوجوب ارتقاء الوالدة لتهذب بنيها وتربيهم على المبادىء الحسنة الرفيعة حتى اصبح كل مناد بهذا الموضوع كالمنشد اغنية يتشدق بها اولاد الاسواق وغدا هذا البحث متبذلاً يعطيه المعلمون موضوعاً لتمرين الصبيان على الانشاء بين جدران المدارس .

انا لا اريد زيادة صفحة جديدة على الصفحات التي طرحها الابتذال على حضيض النسيان والقتها الايدي موضع الضجيج الذي لا يتجاوز تأثيره مفعول تخديش الاذان .

لقد كتب علماء الاخلاق كلاماً مطولاً في موضوع الام فذهبت

بعض اقوالهم مثلا وبقي بعضها في المجلدات الضخمة التي لا تصل اليها ايدي الكل فاتخذها رهط الكتاب موردًا للانتحال مرددين في الالفة السورية ما هو فضلات المفكرين وكسرات تتساقط عن موائد المنشئين .

ان مثل هذه الاقوال المجموعة نثرًا من كل مجموع لا تضمها قوة موحدة ولا يدفعها الى الاستنتاج منطق صحيح لهي كالارياح العاصفة من كل جهة تتلاطم قواها على المحجة فتحطمها ولا تديرها . هذه الاقوال التي تخاطب العقل تارة وتلمس القلب اخرى تقع على شعور الام فتزيده همودًا اذا كان هامدًا وتدخل اليه الضجر اذا كان منتبهًا .

ايتها الام لا تخافي ، انا لا اكتب لك فصلاً من هذه الفصول المملة المملوة بالمواعظ المتناقضة . ان ما ستقرأينه ليس كتابة فيلسوف ولا قصيدة شاعر ، ليس ذلك مواد شريعةٍ ولا صوت كاهن ينادي على المذبح ، انما ما ساكتبه لهو اعمق من صوت الفيلسوف ، هو اقوى من قوة الشريعة واعلى من هتاف الكاهن . هو كلام لولدٍ صغيرٍ بكى فسمعت بكاءه يدوي في الالفة كالرعد وتساقطت دموعه فالتقطها برأس هذا القلم الذي تعود ان يغمس في الدموع ليجفف الاهداب المبللة من ضلال الانسان .

رأيت ولدًا بلا امٍ يردد مع الانين ما لم يكتبه فيلسوف من واجبات الام فاصغيت اليه طويلاً حتى تبين لي انني لا ابلغ نصف

فصاحته مهما تاملت وكتبت فعرفت ان المفتكر لا يمكنه ان ينطق بكلمة تصوّر الاشجان كالكلمة التي تخرج من قلب المضروب نفسه . مهما بالغ المفكر في تحديد واجبات الام فلا يمكنه ان يحددها كالطفل الذي يشعر بوجدان لم تكيّفه اراء البشر واضاليلهم .

فيا ايتها الام ويا ايتها الغادة السائرة بحكم الله الى الامومة طالعي بامعان هذه الرواية الصغيرة التي انقلها لك كما وردت لي بعباراتها الساذجة واقوالها التي تعلو بضعفها على كل قوة . اتركي فلسفة الاخلاقيين ولغط الكتاب المختلفين على كيفية تربيتك واسمعي صوت الطفل فهو صوت من الله . تعلمي منه واجباتك فقد كنت مثله طفلةً وشعرت مثله بتلك المحبة البنوية التي تلامس العبادة واجتهدي الاّ تدعي ابنك يعبد بك صنماً مدنساً لئلا يتعود الركوع امام باعال والسجود امام الصنم الذهبي ....

﴿ اعتراف ولد ﴾

كان لي امٌّ اجمل من كل الامهات ومن كل النساء . اذكرها وهي محنيةٌ فوق سريري تتجلى لعيني باغرب جمالها الساحر فتلقي على جبيني قبلةً تترك بعدها عبيراً سماوياً يتضوع طويلاً بين ستائر مهدي فكنت ابتسم لمرآها وانظر اليها كنظري لشعاع الشمس او لتموج الالوان السبعة في الافق . كنت افرح لقربها بكل القوى السامية

التي اعطاها الله لنا نحن الاطفال .

كنت احب ابي واحب مرضعتي اما امي فكنت اعبدهـا وما تفردت وحدي بالاعجاب بها فان كل ناظر اليها كان يشعر بعظمة جمالها وكم من مرة سمعت الناس يقولون وهم يتأملون بملاح وجهي : لاعجب ان يكون هذا الصبي جميلاً فان امه الهة الجمال . وما اشد ما كان فرحي حينما صرت اخرج معها الى المدينة لابساً سروالي الاحمر القصير متمسكاً بيدها وهي تخطر كالغزال بل كروح لاتمس الارض رجلاها فتستأسر الابصار واسمع من كل فمٍ كلمات الاعجاب حينئذ كنت اشعر بحركة غريبة في فوادي الصغير وانادي بصوت عالٍ :

يا اماه ! يا اماه !

فتجيبني : مالك يا ولدي

فاسكت . وما كنت انادي هكـذا الا ليعلم الكل ان هذه هي امي الجميلة .

ولست اذكر اني اغضبتها بتصرفي ولا مرة وكان يكفي لوصيفتي ان تذكرني بوالدتي لاحجم عن كل عمل مغاير لارادتها .

وكان لي ان ارى امي مرتين بالنهـار فقط فاذهب اليها لتسمع مثائلي فاذا اجدت بحفظها سمحت لي بالبقاء في غرفتها وهي تسرح غدائر شعرها الذهبي المترامي على اكتافها كحلقات تشبه النجوم التي تترجرج في كبد الضحى .

كم كنت احب في ذلك الحين ان اسمع صوتها الرخيم يكلمني بهدوءٍ ولكنَّ الامهات كثيرات الشغف بكل ما لايدعى واجباً . فكانت افكارها مشردةً تترفع عن السقوط الى درجة فهم ولدها الذي يعبدها ..

كان لامي فساطين عديدة تجربها وزيارات متتابعة تقوم بها واشخاص عديدون تتلهى بحبهم عني . وكم من مرة ذهبت الى المراقص باول الليل ولم ترجع الا بعد رقادي فحرمت منها قبلة المساء ..

واذكر بان مرة سمح لي بالسهر لبعد عودتها من المرقص كي اراها بثوبها الجميل فلما دخلت الى البهو الكبير بعد ان اعياني الهجود رأيتها مسربلةً بالحرائر وقد ظهر صدرها كبرج عاج عليه الثديان اللذان ارضعاني مطلوقين لكل ناظر .. .. .. فانبهرت عيناي من هذا المشهد وكدت لا اعرف امي بتلك الغانية الهيفاء لو لم ينبض قلبي بشدة فجثوت على ركبتي ولم اجسر ان امس طرف ثوبها فقالت لي :

مالك لا تقبلني يا ولدي ؟

فشرقت اذ ذاك بدموعي واجبت :

— انت جميلة جداً يا اماه . انت اجمل ما ارى .. لا تتركيني .. ابقي معي دائماً . فكان جوابها :

— الا تريد ان تسكن روعك ايها المجنون اين الوصيفة لتاخذه الى سريره .

ولما بلغت السادسة من عمري أرسلت الى المدرسة فكنت ارقد مع بقية الاولاد في غرفة النوم الباردة واتاسف على حالتي غير ذاكرٍ من ماضيَّ شيئاً سوى امي . . .

وكانت تحضر كل اسبوع لمشاهدتي فافتخر بها لكونها اجمل كل امهات رفاقي تستجلب انظار الكل للتأمل بها . فكنت اتمسك بثوبها مخافة ان يخطفها الناس مني ولكن وآسفاه ذلك الفرح لم يكن ليدوم فان امي كانت تخرج من غرفة المقابلة قبل انقضاء الوقت المعين فاتبعها الى خارج المدرسة وهي ماسكة يدي الصغيرة والجموع شاخصة الينا كاننا قمران .

وما كانت تتوارى عن ابصاري حتى اعود الى مقامي مشرد الفكر وقلبي الصغير منقبض يقطر دما . فاذهب الى فراشي للرقاد دون ان يزور الكرى اجفاني لان فكرًا واحدًا كان يتملك عقلي وهو : امي ، فاتساءل بحزنٍ :

لماذا امهات رفاقي يلبثن طويلاً عند اولادهن وتقبلنهم باشد الحنان وتحضرن غالبًا لمشاهدتهم مع ان امي ترفق حنوها بالضجر فهل ان الجمال يسبب الفتور في الواجبات ؟

وما طال حتى اعترتني حمى خبيثة ذهبت بقواي فأرسلت الى مستشفى المدرسة ومنه الى البيت فازدادت الآمي ولكنني نسيتها اذ رأيت امي جالسةً قرب سريري تمر يدها البيضاء على جبيني المحترق

فكان دائي لديها وهماً واصبح عذابي قربها عذاباً . وما عاد اليَّ روعي بعد ما تحملت من ضنى المرض حتى رأيت دلائل التعب بادية على محيا امي العزيزة فزادت معرفة الجميل قوة حبي واصبحت واداً لو انني ابقى مريضاً ولكنني لم البث حتى عادت اليَّ بعض القوة فلم اعد ارى امي الاَّ نادراً واخيراً تحسنت حالتي فلم أعد اراها ابداً .. .. .. فوددت اذ ذاك ان تعود الحمى اليَّ لاموت .

وبقيت بعد هذا طويلاً في البيت وابي يعتني بي فعرفت حينئذٍ من نفسي محبة صادقة لابي الذي كان يلازمني وهو شاحب الوجه ودلائل الحزن المذيب تلوح على محياه ككل الازواج ذوي العقائل الجميلات الطامحات الى اللهو والبذخ ..

واذ كنت مع ابي على انفراد قلت له همساً : اليس ان كل الناس يحبون امي لجمالها !

فاخذني بذراعيه دون ان ينبس ببنت شفة ولكنني شعرت بخفقان قلبه اذ قبَّلني .

∴

ويلاه ماذا جرى فانني اتعس الابناء . انني اشد حزناً من كل ولدٍ على الارض ولا اقدر ان اشكو احزاني لاحد . لقد تركتنا امي فاين هي ؟

من يعلمني بمقرها ومن اسأل عنها ؟

ان ابي حزين جداً ويخال لي من مـلامحه ان امي ميتة فهو يبكيها .

ولكن كيف ماتت ولم ارها كيف تكون ميتةً ولا نلبس عليها الحداد ولا نذكرها بالصلاة ؟

جربت مراراً ان اسأل عنها ولكنني عبثاً حاولت التغلب على الجبن المستولي عليَّ فكانني اذ اريد الاستعلام عن امي متقدم على جنايةٍ او سابرٌ جرحاً دامياً . اواه كم اغبط الاولاد الذين لهم امهات لا يختلن الا بجمال النفس دون ذلك الجمال الحسي الرائع الذي كان سبب اعجابي فاسى اصل بلواي وحبب اليَّ الموت . نعم انني اريد دخول القبر وارى ابي يتوق مثلي الى الفناء .

اواه ما ارهب ذلك السكوت الذي يجلل والدي وهو جالس على كرسيه يشتغل بالكتابة ويده سـاترة جبينه المصفر . ادخل الى غرفته بهدوء وامسح اقلامه وامتنع عن اللعب خشوعاً لدى حزنه . اسير اليه مقبلاً يديه فيحفظ الصمت وانا ايضاً لا اجسر على رفع ابصاري الى وجهه الشاحب فالقي رأسي على صدره ولا نلبث حتى تمتزج دموعنا : دموع الزوج التعيس ودموع الابن المتروك فتجري ببطء دون ان يراها احد في انفراد تلك الغرفة القاتمة .

.:.

يوم الاثنين الماضي وُضعت في غرفة مظلمة طول النهار ومع ذلك

كنت مسرورًا . ذلك لان وصيفتي كانت تُتكلم مع رفيقة لها مسنة وقد دار الحديث على اناس يسمونهم باهل الفساد ولم اعرف من هم .

فقالت العجوز وهي تنظر اليّ :

اتاسف على ولد كهذا تكون امه فاسدة القلب وشقية الحياة .

وما سمعت هذا الكلام حتى اصبح كل شيء امامي نارًا ودمًا . فهببت كالاسد المجروح الطم العجوز بكل قواي وارفسها برجلي فكان جزاي السجن في غرفة مظلمة لانني دافعت عن امي .

نعم انني بقيت بياض النهار في ظلام سجني وقلبي يختلج فرحًا اذ تعذبت لاثأر لتلك الام الغائبة التي تركت ولدها فادفع عنها تهمة الذين يهينونها .

لقد مرت الايام الطوال وامي لم ترجع ، ويلاه لقد اصبحت بلا ام لقد اختلسها الناس مني وابعدوهـا عن حب ابنها الصغير . نعم لقد سرقها الغرباء دون ارادتها اذ من المحال ان تقبل بترك ولدها الذي كانت تمر يدها على شعره وتقول له ..

يا صغيري العزيز .

لقد اختلسوها لانها جميلة .

ويلاه يا رب اسمع طلبتي واعدها اليّ ولو مشوهة الوجه قبيحة المنظر فانني اجدها دائمًا جميلة .

ارجعها اليّ يا الهي فما من شيء اصعب على الابن من ان يُدعى

يتيماً و يبكي اماً احبها بكل قواه وهي لم تزل تتخطر في مروج الحياة . (انتهى)

ايتها القارئة المنحنية على هذه السطور . غادةً كنتِ او عقيلة او اماً اذا كانت مدامعك لم تزل جافةً فذلك لان عاطفة البشرية قد استحجرت في قلبك الجامد . اذا سمع رجل نداء طفلٍ يتعذب ولم يبك فذلك الرجل لا يزيد نقصه عن القساوة . اما المرأة فانها مطالبة بالحنان على اغراس الانسانية التي يعروها الذبول فان لم تحييها من حرارة القلب وتسقيها من مورد الدمع فتلك امرأة شاذةٌ عن مبدأ طبيعتها . تلك ام بربرية متوحشة ! ! وانا لا اكتب لمثل هذه الصخور الجوامد . انا اكتب للجنس اللطيف السامي الذي ينزل الله على صفحات قلبه كل ما في الدين من آيات العظمة وفي الادب من مبادئ الكرامة والمجد .

انا اكتب للمرأة التي تتأثر وتبكي لان البكاء في المرأة هو عنوان لشدة نفسها وقوة قلبها . فسلام على العيون الدامعة واجلال للقلوب الرقيقة النابضة بالحنو . طوبى لليد الناعمة التي ترتجف من وراء اختلاج العواطف المنبثقة من الازل ولم يقتلها ضلال الناس وزخارفهم وامجادهم الباطلة .

ان المرأة التي لا تسمع نداء الادب ولا تفهم كلام الفلسفة فهي جاهلة متقهقرة . اما الام التي لا تسمع نداء الطفل فهي مجرمة تستحق

الاحتقار .

هل عرفت ايتها القارئة مبدأ الغيرة السامية التي تدفقت من حديث الطفل المعترف بادق ما يشعر ؟

ليس الولد غيورًا عن انانية يولدها ضلال الاحساس لانه اقرب الكائنات الى الازل فشعوره عادلٌ طاهرٌ لم تكيفه الاعتقادات البشرية ولهذا فغيرة الولد هي غيرة النفس على حقوقها المكتوبة في شريعة الوجدان .

لما كتبت عن واجبات المرأة كعقيلة لم اجد بدًّا من تحديدها لانها تتراوح بين اعتقاد الزوج واميال الزوجة . كتبت وحددت لان الالفة المنقلبة بشرائعها واوهامها كانت ولم تزل تعطي للرجل وللمرأة دورًا فدور حقوقًا جائرة وحرية ظالمة فرجعت بوجداني المجرد الى مبدأ العواطف الى النفس واخرجت منها شريعة التفاهم والعدالة التي يجب ان يعتبرها كل زوج وزوجة يطلبان السعادة بالحب والمجد الحقيقي بالحياة .

اما الان وانا اكتب عن الام فاجدني واقفًا بين كائنين الاول معرض للضلال بالاهواء ومحبة الجمال الزائل والثاني لا يعرف مبدأ لشعوره غير ما غرسه الله في قلبه . فلا اجد موجبًا للرجوع الى نفسي واستنتاج شريعة الامومة من وجدانها المجرد . لماذا اكتب عن واجبات الام وقرب كل ام ولد كتبت شريعة الامومة بكل حركاته وسكناته

كتبت على جبينه وعلى ابتسامته حفرت على لفتاته وسالت على خديه مع دموعه .

ايتها الام اذا كنت تريدين معرفة ما يجب عليك نحو ابنك فتنازلي من علو زخرفتك وحبك للهو الى ملاحظة ما تظهره اعمالك على اسارير وجهه وعلى تلك الصفحة المقدسة طالمي وصايا الفضيلة التي حفرتها اصبع الله .

انظري ايتها الام كيف يتململ ولدك حينما يراك تفرقين ابتساماتك الى كل من حوالك ... انتبهي الى حركته الموجعة حينما يقترب اليك غريب ليهمس في اذنك كلاماً لا يسمعه ولو سمعه لما فهم منه شيئاً ! ...

انظري ايتها الام الى ابنك تسيل الدموع من عينيه حينما يخطر لك ان تبارحي البيت قصد التنزه وحدك اسمعي زفيره وافهمي منه ما يقول

— لا تذهبي وحدك يا اماه . خذيني معك فاكون لك حلية كهذه الحلى التي تفتخرين بها بل اكون اشد لمعاناً منها ولكنني احرسك كعاطفة مقدسة ارد عنك هجمات الشر كجناح كله قوات سماوية . مناغاة من فمي تطرد الابالس من حولك وابتسامة من شفتي تبدد ارواح الشر التي تريد الايقاع بك . دمعة من عيني تذكرك بعهدك وايمانك . خذيني معك لان ضعفي اقوى من سلاح الجنود ولفتاتي ارهب من

ولكنك ايتها الام قلما تسمعين لهذا الهاتف الذي يدوي من السحاب بقوة الالوهية فيصل الى اذنك المصغية لضجيج الاجتماعات المضلة كأنه صراع مزعج يدفعك الى الهرب ..

بعد عودتك من المرقص ايتها الام السورية وانت مرتدية ثوبًا مكشوفًا يعري زنديك ويطلق نهديك للانظار عندما تدخلين على ابنك بهذه الصورة وفي قلبه دماء اجداده السوريين تجول بقوة تضيق بها انفاسه حينئذٍ تمعني بلفتاته وقد اتقدت بها نار السماء وجالت بينها غيرة النفس الابدية من ضلال الكبرياء الزائلة . تمعني وافهمي ما تعني تلك الدمعة المحترقة التي تجول بين اجفان الولد وهو لا يجسر ان يجود بها .

تلك الدمعة تقول كما قال الفادي العظيم عن هيكل اورشليم :

بيتي بيت الصلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارةً للصوص .

تلك الدمعة تقول :

— يا اماه ! ان زنديك خلقا لتربيتي واوجدا وسادةً لراسي ان نهديك خلقا ينبوعًا لماء حياتي فمن قال لك ان هذه الكنوز اوجدت لخدمة البهرجة والكبرياء القاتلة اية شريعة اوجبت لك ان تدنسي هيكل ابي ومركع نفسي التي تناجي خالقها من بين ذراعيك ؟ من حلل لك ان تجعلي هذه الكنوز التي وقفها الله على العيلة محجةً للشهوات

كتابة صفحة الى خطيبة شبانه وامرأة غده . وليست هذه الصفحة الا خلاصة الصفحات المتقدمة ويكفي للآنسة ان تتمعن مليًا بما خاطبت به المرأة لتتعلم من ادواء اختها ما يكفل لها حسن المقبل والابتعاد عن التورط والسقوط .

ايتهــا الانسة انت اليوم بموقف يباين موقف امرأة اليوم حينما كانت آنسة مثلك . وسطك اشد ضلالاً وكل ما يحتاطك يتكاتف على القاء الهوان عليك . امرأة اليوم كانت ربع متمدنة وها هي الان تئن وتشكو وانت اليوم نصف متمدنة فسوف يزيد انينك عن انينها ويربو عذابك على عذابها اذا لم تتداركي الشقا قبل حلوله .

ايتها الغادة ان مباديك ستكون اساسـًا لالفة الغد لان علم الرجل ينحصر تأثيره على ثروة البلاد وفقرها اما انت فمن علمك يتكون ادب الامة ومن قلبك تنبعث سعادتها . وانت اليوم تحصرين علمك بما يقهقر ادابنا وتربين قلبك على ما يولد شقائنا .

يا ابنة سوريا ان لكل شعب تمدنًا خاصـًا ولغةً خاصة يجعلانه مميزاً عن بقية الشعوب اما بنو سوريا فهم اليوم خليط من كل امــة آدابهم مجموعة من اضاليل كل الامم ولغتهم ممزوجة بكل لغة . فقدنا استقلال التجارة والحاصلات فاجبرنا الاقتصاد السياسي على التوسع بعلوم الاجانب واتقان لغاتهم . وهــذه هي اول مظاهر العبودية في الشعوب . نحن تعلمنا الافرنسية والانكليزية واهملنا لغة اجدادنا الان

ارضهم لم تعد تدر علينا ونحن لم نعد نحنو عليها. تعلمنا هذه اللغات لان تمدننا سبق قوانا فانسلخت اعمالنا عن اميالنا ولو امكن لابناء سوريا ان يعيشوا بوحدة لغتهم لما فضلوا عليها لغة وما القوا وراء المحيط رحالا.

رجل الوطن مضطر ان يتفرنج بلسانه ولكن انت يا غادة الوطن واساس ادابه من اجبرك على ادخال التفرنج الى اعماق قلبك؟

اذا كان التفرنج متسلطاً على السوق والمكتب والادارة بقوة الضرورة فاية ضرورة صيرت مهد اطفالنا خالياً من كل هيئة سورية وكرامة عربية؟ ايتها الغادة ان رجالنا مضطرون الى التفرنج بلسانهم وبدفاتر تجارتهم ولكنهم سوريون بقلوبهم عرب بادآبهم ولكن اذا دام الحال على ما هو من امر تهذيبك فسوف يصبح السوريون اجانب حتى باعماق قلوبهم . دماغ الرجل موقوف على اعماله اما عواطفه واميالة فموقوفة على عواطفك واميالك .

ليقو حب الوطن في قلبك ايتها الغادة فلا يلبث حتى تري الرجل يهرق دماءه في سبيل الوطنية . تعلمي لغة البلاد وتعودي ان تلذ لك ادآبها ويحرك قلبك شعرها فلا يطول الزمن حتى تري اللغة مرتقية واشعارها ترن في الخافقين وكلها وحي العواطف ومودع الادب والرقي .

اما اذا بقيت محولة كل قواك الى اقتباس لغات الاجانب وتقليد تمدنهم بكل ما هو ناقص ومشين فسوف تصبح الفتنا كمجموع قردة تنقله بلا مبدا وتتحرك دون محرك اولي معقول . سوف يصبح

كتابنا المانيين وافرنسيين وانكليز فتتحول قوة الفكر السوري الى لغات الاجانب لاجل ارضاء ذوقك الضال فيضحك الاجانب من ضعفهم وكان يمكنهم ان يكتبوا بلغتهم مفيدين مجيدين .

سوف تصبح مجتمعاتنا موضاً لتبلبل الالسن كاننا امام برجٍ جديد نقيمه بضلالنا لبابل المصرية . . . . . . سوف يشب اولادنا على صفات كلها خارجية وتخلو انفسهم من الوسم الداخلي الذي يميز الشعوب ويعطي القوة للامة . .

وكل هذه المصائب التي اراها معلقةً بيدك لتسقط على الالفة الوطنية انما مركزها في ذوقك واصلها من عواطفك .

ايتها الغادة ان كاتب هـذه السطور لهو سوري لبناني من ابيه واجنبي افرنجي من امه . ان الذي يكلمك الان بالعربية لم يسمع غير الافرنسية حتى نهاية طفولته رضع لغة الفرنسيس مع اللبن ولم تغمض اجفانه في السرير الا على اناشيد تلك اللغة .

نعم ايتها القارئة العزيزة لكنت احق النـاس او اقربهم الى المعذرة لو (تقبعت) وتفرنجت ولكنني اعد ناكر الوطنية خائنًا والمتبرر من شعبه الضعيف جبانًا وانا لا اريد ان اوسم بالخيانة والجبن . طربوشي شعار عثمانيتي التي افتخر بها فلا ابدله بقبعة سفير وسوريا بلادي شعبها الضعيف اخي فاحب اليَّ ان اكون ضعيفًا معه من ان اكون قويًا مع الشعب الذي تقربني صلة الرحم اليه . ولو لم يكن اسمي ذكرًا الوالد

امي احفظه كارث مقدس لكنت استبدلته باسم امين دون ان اجمله (فيدال) او بيطرس دون قلبه (بييار) او بجبيب دون تحويله الى (آمه) كما يفعل شبان العصر الذين يستحون بطربوشهم و بلغتهم حتى و باسمائهم ايضاً ٠

ايتها الغادة انت التي تحولين شبان العصراخوتي الى قردة يتقلدون ولا يفهمون ٠

انت تنادين يوحنا باسم جان فليذ له ما يخرج من فمك فيقلب اسمه انت التي تجدين القبعة اجمل من الطربوش فيجاري ذوقك انت التي تكلمينه بالافرنسية والانكليزية بنصف اللسان الذي تعلمته فينسى بالكلمة التي تخرج من مبسمك كل الكلمات التي ناغته بها امه وهو على السرير ٠ لا تحنقي يا غادة سوريا انا لا اكتب متحاملاً فالذي اخطه هو نتيجة اختبار طويل وتامل عميق وجدتك يا اختي بكل مقام وحالة رايتك غنية وتمعنت فيك فقيرة حادثتك متعلمة واختبرتك جاهلة فعلمت من كل هذا البحث انك لست سورية مرتقية لعلة اندفاعك وراء التمدن الكاذب ولست اوربية بالغة مبلغ هذا الشعب من الارتقاء لانك خلقت لغير هذا التمدن ولغير هذا النوع من التهذيب ٠

كلمتك بالافرنسية فملئت اسماعي من ذكر هيكو ولامارتين واسكندر دوماس وحين سألتك ابسط الامور عنهم اتضح لديَّ ما

تعرفين وانجلى لباصرتي زيف التقليد ! !

كلمتك بالعربية فخلطت نصف جوابك بالافرنجي حادثتك عن لغة بلادنا ففتحت عينيك بدهش وارتسمت على شفتيك ابتسامة احتقار دون ان تفهمي شيئاً وكان جوابك :

— ماذا تفيدني اللغة العربية ! انا لم اجتهد بها وفي المدرسة لا يعلموننا اكثر من ساعة مبادئ القرأة العربية فقط .

ايتها الغادة اذا كانت لغة بلادك لا تنفعك لانها تحمل في الوطن نسمة الارتقاء واستقلال الامة بتمدنها الصحيح اذا كانت هذه اللغة ادنى من ان يتنازل اليها عقلك السامي فتكرمي بالجواب غير مامورة : اية فائدة ترجينها من وراء اللغات الاجنبية ؟

اتريدين الاستخدام انت ايضاً في ادارات الاجانب ؟ . اتريدين معاطاة القومسيون انت ايضاً لاستنزاف هذا الموطن الاجرد ؟ الا يكفي ان نصف رجالنا اصبحوا عبيداً تدفعهم الضرورة الى دفع الالفة للعبودية حتى تصبحين انت يا غادة سوريا وانت رابطة الوطن اول من يحل هذه الرابطة المقدسة .

لقد يخطر على بالك ان تجاوبي :

ان المجتمعات في الصالونات تستوجب ان يعرف الانسان لغة الافرنج وهذا من ضرورات التمدن .

جميلة هي صالوناتكم يا اخوتي السوريين ومضحكة هي تقاليدكم

الجديدة .

انا لم ادخل صالونًا منها حتى بين كبراء قومنا واغنيائهم دون ان ينجلي لي فيها نقص التقليد وفراغه من كل حسن وجميل . كل حركة فيها تستوجب الضحك . كل عبارة تلفظ فيها تنافي مبدأ الادب الاوروبي على خط مستقيم انت يا غادة سوريا في هذه المجتمعات كخيال اسود يتحرك على الحائط وحقيقته بعيدة جدًّا عنه .

لو دخل مجتمعاتنا التقليدية سيدة اجنبية رسخت فيها عوائد بلادها منذ الصغر وتاملت بحركاتك يا اختي السورية بخطوات رجليك باهتزاز رأسك بلفظك وتركيب عبارتك لعادت ساخرةً بك متاسفة على الفة كان يمكنها ان تكون سورية معتبرة بعوائدها الاصلية ففضلت ان تصير افرنجية ناقصة مضحكة ساقطة .

دخلت يومًا الى احد صالوناتنا المتمدنة فرأيت فيه عدةً من السيدات والرجال من الاوانس والشبان وكلهم يتكلمون ولا احد يسمع هذا يسرد حديثًا بالافرنسية وتلك تناظر رفيقتها بالانكليزية فتجيبها هذه تارة بالعربية وتارة بالايطاليانية وكان الحديث فارغًا من كل روح لان المتحادثين كانوا فاقدين المعرفة باساس الفتهم ولا يعرفون من الفة الافرنج غير تمثيل حركاتهم . وقف احد الشبان وكان لابسًا نظارةً ذهبية على عينيه واخذ يلقي على الحضور قصيدةً لفيكتور هيغو فاصغى اليه الكل وخصوصًا السيدات ولم يكن يفهمن من

قصيدة فيلسوف شعراء الفرنسيس غير رنة الوزن فقط ومع هذا كنّ يتمايلن ليقال انهن فرنسويات وكلهن لطف وشعور . وكان يزداد حماس الشاب من هذه المظاهر الكاذبة فيرفع صوته متقلداً الافرنج بلفظٍ لو سمعه هيكو لندم على نظمه تلك القصيدة التاعسة . . .

وبعد سكوت قصير قالت احدى الاوانس

— اين للشعر العربي هذه الرقة وهذا الجمال .

وكنت على ثقة بان حضرتها لم تفهم شيئاً من شعور هيكو لانها لو كانت تشعر بشيءٍ لما القت الاحتقار بوجه وطنها وطعنت بلغة ابيها وامها . خيل لي ان سهما يشق فوادي فنظرت الى الغادة وقلت لها .

— هل قرأت شيئاً من الشعر العربي ايتها الانسة .

— انا لم اعد اقرأ شيئاً من الشعر العربي بعد خروجي من المدرسة ولكنني لم ازل اذكر القصائد التي تتعلمها البنات وهي ! ! !

وامثال هذه الاشياء الباردة فكيف تريد بعد ان اعمد الى مطالعة الشعر العربي .

سكت لانني وجدت جوابها مقنعاً من بعض الوجوه وجدت ان هذه الجريمة التي تقترفها بنات الوطن نحو الوطن لهي نتيجة التعليم الفاسد الذي يريد الاجانب ان يستندوا عليه لاماتة اللغة العربية من كل القصائد الذي تعلمت اوروبا منها الشعر واحنى هيكو رأسه امامها قائلاً ان الجمال بالشعور هو جمال عربي . . من كل هذه القصائد التي لا

تموت لم يجد الاجانب غير النظم الساقط ليقلهوه قاعدة تنفر منه قلوب الناشئة من كل القطع الانشائية التي تدخل الى اقسام النفس فترتعش لها عظمةً وشعورًا . لم يجد الاجانب غير القصص الخرافيـة المأخوذة عن اسقط طبقات الانشا العربي حرقت الارم وقلت للانسة .

— اذا كنت لا تقرأين الدواوين العربية فانت ولاشك تقرأين كتابات هيكو .

— نعم انني اقرأه والذ به كثيرًا

— اذا كان ما تقولين صحيحًا فاعجب جدًّا كيف انك لم تقرأي رآي هيكو نفسـه في اداب لغتنا وشعرنا . اذا كان اهل الوطن يساعدون بسكوتهم على قتل لغتهم وتحقيرهـا فكان يجب ان تتعلمي من شاعر الفرنسيس محبة اداب اللغة التي تكلم بها اجدادك .

لم يكن لكلامي موقع حسن في اذن الانسة المتفرنجـة فهزت كتفيها وقامت الى البيانو تضرب عليه قطعـة بولكا من ابسط ما ابدع الفرنساويون في صناعة الالحـان وكانت تتمايل طربًا لدى وقع هذا النغم الفارغ على اذنها ....

وبعد ان انتهت من الضرب ادارت وجهها نحوي وقالت .

— وهذا ما تقول به يا مسيو ؟

فاجبت — هذا موال افرنجي ..

— آه . انت بلا ذوق .

— نعم انا بلا ذوق يا سيدتي ولكنني افضل ان اسمع الشيخ سلامه ينشد سلامٌ على حسن يد الموت لم تكن لتمحوه او تمحوهواه من القلب من ان اسمع هذه البولكة التي لا تعني شيئاً . انا افهم الموسيقى الافرنجية اكثر مما تفهمينها ايتها الانسة لان مقاطع انغامها لم تزل ترن في اذني من حين كنت مضجعاً على سريري واعرف من الانغام الفرنساوية ما لم تحلمي به ولكنني درست الموسيقى العربية ايضاً فانا اعرف منك بالاثنين ولا اريد الان ان القي عليك درساً بالانغام بل اريد ان تعرفي ايتها الانسة بان تفضيلك اسقط موسيقى عند الافرنج على اجمل ما ينشد منشد وارق شعر نطق به شاعر عربي لهو دليل على انتصار التقليد المشين في الفتنا الشقية وانهزام الروح الراقية من بين ناشئتنا . .

خرجت من ذلك المجمع والدما تقطر من قلبي على وطن تبيعه الفته بالقشور اللوامع خرجت حزيناً على غادات يدفعن رجال الغد بذوقهن الضال الى احتقار لغة البلاد ومجدها الساذج وعوائدها الجميلة مع ان الغادات هن في كل بلاد عنوان الوطنية يشجعن ادابها وينصرن شعرائها ويقوين المجاهدين في سبيلها . وهنا ارى فتاتنا واقفةً على منحدر الجبل العالي وبنانها يدل الشيبة الى الهاوية بدل ان يدلها الى الذروة الى قمة الوطنية واعتبار ارماس الجدود .

لو لم تكن غادة الفرنسيس اشد ولوعاً من الرجل بارض بلادها

لما كنا نرى شبيبة تلك البلاد تقتحم غمرات الموت في سبيل الوطنية وعلى شفاهها ابتسامة الاحتقار للموت من وراء الحب الذي غرسته الغادة في القلب . الفة بلادي تحتقر لغتي فلمن اكتب . كبراء قومي لا يفهمونني فلمن اجر هذه القصبة التي كان صريرها يملاء الدنيا علماً وشعورا وتمدنًا فاصبحت تئن على الورق انينًا فلا يتجاوز صوتها اذن الكاتب .. ..

اكثر من مرة مسكت هذا القلم وحطمته . اكثر من مرة ذودته دمعه في ساعات السآمة والكلال وعدت الى الريشة الحديدية التي تطيع اناملي اكثر من القلم . ولكنني لم اكن ابقى طويلاً تحت اليأس لانني كنت ارى على قمة لبنان وطني غادةً يكسف وجهها نور الشمس رجلها راسخة على الثلوج وهي اطهر منها وراسها ينطح السحاب بكل قوة سوريا ومجد العرب تلك الغادة ذلك الملاك كانت تمد يدها نحوي وتقول :

ارجع الى القلم يا ابن سوريا اكتب بلغة وطنك وجاهد . تكلم فانا غادة لبنان سامعة ما تقول . اذا كانت عذارى البلاد لا تفهم فانا عذرا الوطنية لا احول اذني عنك . خذ يدي فانا خطيبتك اذا كتبت فمن اجلي تكتب وان تكلمت من اجل حبي تتكلم . انا صورة مجد الشعوب ورمز حياة الامم انا مثال الوطنية ! . . . .

كنت احني الرأس عند هذه النجوى كالقصبة الضعيفة التي تتلوى

من هبوب العاصفة كنت اضع يدي على قلبي واسير بين انتقاد المتشدقين الذين يتلهون بالحرف الذي يميت ولا يشعرون بالروح التي تحيي . كنت ابتسم حزنًا على المدعين الذين لا يعتقدون بوجود قوة الا قوتهم ولا يسمعون صوتًا غير صوتهم . كنت احتمل هزء الاجانب اقاربي بي وهم يقولون لي اترك هذه المتاعب وهذا الشعب الذي يفهم الفضل تطفلاً اخرج من هذا الوسط الذي يعيش فيه الاديب غريبًا ولا يحل به الا المتزلف المحاري . ادخل بيننا فانت على الاقل ان كتبت تكتب مثلنا وان تكلمت فلا ينقص كلامك صحةً عن كلامنا تعال فما بيننا يُنصر اهل الفكر ولا يلقى قلم الكاتب كمار على وجهه . . . .

انت في وسط تغلي فيه مراجل المبادي المختلفة والفتك تتناهبها العناصر المتعاكسة فاذا نطقت بحقيقة هب بوجهك انصار المبادئ الفاشية للمقاصد الذاتيه . . انت يمكنك ان تكون راقيًا في امة راقية فلماذا تفضل الجهاد ما بين شعب ستمر عليه الاجيال ولا يفتح عينيه للنور .

كنت اسمع هذه الاقوال فاكاد ان ارضخ لصحتها ولكن يد الملاك الواقف على اعالي جبل لبنان كان ينبعث نور عينيه الى جبيني ويلقي يده على قلبي فارفع الرأس واتقدم في هذا السبيل الضيق الوعر قائلاً :

هم اخوتي ذلك الشعب الضعيف الذي يضلله اهل الضلال ، هذه الرؤوس النائمة على سكون الاجيال تتمخض فيها كل القوى التي تجعل هذا الشعب المبدد امةً عظيمة وهو متسلسل من قادة الامم وحاملي مشكاة العلم على منارة الدنيا .

لغتي مهد الفلسفة والادب وارض اجدادي مورد السعة والثروة فسوف اجاهد مع هذا النذر اليسير من فضلاء وطني وتحت الراية العثمانية المحبوبة سوف نجاهد لاحياء بلادنا وترقية شعبنا واذا لم يقدَّر لنا ان نكون فاتحة دور الرقي الذي نرجوه فنكون على الاقل ضحيةً تجعل ختماً شريفًا على قبر شعب اماته التقليد ودفنته الاجيال في حفرة التشبه والاسر وكم ابتلعت هذه الحفرة من امة ولاشت من شعب .

يا غادة سوريا ان الذين ربوك على مباديك الحالية جعلوك خائنة لوطنك دون ان تشعري وانت لا تزالين تحبين التفرنج الذي لم يقف على قبعتك ولم يهبّ على ملابسك فقط بل هو متاصل باميالك وقد تملك على ذوقك وها هو يلعب بقلبك ليجعلك شقية و يدفع ورائك رجال الغد الى حفرة العدم .

وقد يخال لك ان لا اهمية لعواطفك في احوال الوطن وتقدمه وتقهقره فاسمحي يا اختي ان اقول لك ولو بما تتعجبين من هذا القول : انت اساس التقدم ومبدأ نجاح الامة ، ان الذي لا يفعله ساعد الشاب القوي من تلقاء نفسه توحين انت الى القيام به بابتسامة ونظرة . وان ما

قصيدة فيلسوف شعراء الفرنسيس غير رنة الوزن فقط ومع هذا كنّ يتمايلن ليقال انهن فرنسويات وكاهن لطف وشعور . وكان يزداد حماس الشاب من هذه المظاهر الكاذبة فيرفع صوته متقلداً الافرنج بلفظٍ لو سمعه هيكو لندم على نظمه تلك القصيدة التاعسة ...

وبعد سكوت قصير قالت احدى الاوانس

— اين للشعر العربي هذه الرقة وهذا الجمال .

وكنت على ثقة بان حضرتها لم تفهم شيئاً من شعور هيكو لانها لو كانت تشعر بشيءٍ لما القت الاحتقار بوجه وطنها وطعنت بلغة ابيها وامها . خيل لي ان سهماً يشق فوادي فنظرت الى الغادة وقلت لها .

— هل قرأت شيئاً من الشعر العربي ايتها الانسة .

— انا لم اعد اقرأ شيئاً من الشعر العربي بعد خروجي من المدرسة ولكنني لم ازل اذكر القصائد التي تتعلمها البنات وهي ! ! ! وامثال هذه الاشياء الباردة فكيف تريد بعد ان اعمد الى مطالعة الشعر العربي .

سكت لانني وجدت جوابها مقنعاً من بعض الوجوه وجدت ان هذه الجريمة التي تقترفها بنات الوطن نحو الوطن لهي نتيجة التعليم الفاسد الذي يريد الاجانب ان يستندوا عليه لاماتة اللغة العربية من كل القصائد الذي تعلمت اوروبا منها الشعر واحنى هيكو رأسه امامها قائلاً ان الجمال بالشعور هو جمال عربي . من كل هذه القصائد التي لا

تموت لم يجد الاجانب غير النظم الساقط ليقلبوه قاعدةً تنفر منه قلوب الناشئة من كل القطع الانشائية التي تدخل الى اقسام النفس فترتعش لها عظمةً وشعوراً . لم يجد الاجانب غير القصص الخرافية المأخوذة عن اسقط طبقات الانشا العربي حرقت الارم وقلت للانسة .

— اذا كنت لا تقرأين الدواوين العربية فانت ولاشك تقرأين كتابات هيكو .

— نعم انني اقرأه والذ به كثيراً

— اذا كان ما تقولين صحيحاً فاعجب جداً كيف انك لم تقرأي رآي هيكو نفسه في اداب لغتنا وشعرنا . اذا كان اهل الوطن يساعدون بسكوتهم على قتل لغتهم وتحقيرها فكان يجب ان تتعلمي من شاعر الفرنسيس محبة اداب اللغة التي تكلم بها اجدادك .

لم يكن لكلامي موقع حسن في اذن الانسة المتفرنجة فهزت كتفيها وقامت الى البيانو تضرب عليه قطعة بولكا من ابسط ما ابدع الفرنساويون في صناعة الالحان وكانت تتمايل طرباً لدى وقع هذا النغم الفارغ على اذنها ....

وبعد ان انتهت من الضرب ادارت وجهها نحوي وقالت .

— وهذا ما تقول به يا مسيو ؟

فاجبت — هذا موال افرنجي ..

— آه . انت بلا ذوق .

— نعم انا بلا ذوق يا سيدتي ولكنني افضل ان اسمع الشيخ سلامه ينشد سلامٌ على حسن يد الموت لم تكن لتمحوه او تمحوهواه من القلب من ان اسمع هذه البولكة التي لا تعني شيئاً . انا افهم الموسيقى الافرنجية اكثر مما تفهمينها ايتها الانسة لان مقاطع انغامها لم تزل ترن في اذني من حين كنت مضجعاً على سريري واعرف من الانغام الفرنساوية ما لم تحامي به ولكنني درست الموسيقى العربية ايضاً فانا اعرف منك بالاثنتين ولا اريد الان ان القي عليك درساً بالانغام بل اريد ان تعرفي ايتها الانسة بان تفضيلك اسقط موسيقى عند الافرنج على اجمل ما ينشد منشد وارق شعر نطق به شاعر عربي لهو دليل على انتصار التقليد المشين في الفتنا الشقية وانهزام الروح الراقية من بين ناشئتنا ..

خرجت من ذلك المجمع والدما تقطر من قلبي على وطن تبيعه الفته بالقشور اللوامع خرجت حزيناً على غادات يدفعن رجال الغد بذوقهن الضال الى احتقار لغة البلاد ومجدها الساذج وعوائدها الجميلة مع ان الغادات هن في كل بلاد عنوان الوطنية يشجعن ادابها وينصرن شعرائها ويقوين المجاهدين في سبيلها . وهنا ارى فتاتنا واقفةً على منحدر الجبل العالي وبنانها يدل الشبيبة الى الهاوية بدل ان يدلها الى الذروة الى قمة الوطنية واعتبار ارماس الجدود .

لولم تكن غادة الفرنسيس اشد ولوعاً من الرجل بارض بلادها

لما كنا نرى شبيبة تلك البلاد تقتحم غمرات الموت في سبيل الوطنية وعلى شفاهها ابتسامة الاحتقار للموت من وراء الحب الذي غرسته الغادة في القلب . الفة بلادي تحتقر لغتي فلمن اكتب . كبراء قومي لا يفهمونني فلمن اجر هذه القصبة التي كان صريرها يملاء الدنيا علماً وشعورا وتمدنًا فاصبحت تئن على الورق انينًا فلا يتجاوز صوتها اذن الكاتب .. ..

اكثر من مرة مسكت هذا القلم وحطمته . اكثر من مرة ذودته دمه في ساعات السآمة والكلال وعدت الى الريشة الحديدية التي تطيع اناملي اكثر من القلم . ولكنني لم اكن ابقى طويلاً تحت الياس لانني كنت ارى على قمة لبنان وطني غادةً يكسف وجهها نور الشمس رجلها راسخت على الثلوج وهي اطهر منها وراسها ينطح السحاب بكل قوة سوريا ومجد العرب تلك الغادة ذلك الملاك كانت تمد يدها نحوي وتقول :

ارجع الى القلم يا ابن سوريا اكتب بلغة وطنك وجاهد . تكلم فانا غادة لبنان سامعة ما تقول . اذا كانت عذارى البلاد لا تفهم فانا عذرا الوطنية لا احول اذني عنك . خذ يدي فانا خطيبتك اذا كتبت فمن اجلي تكتب وان تكلمت من اجل حبي تتكلم . انا صورة مجد الشعوب ورمز حياة الامم انا مثال الوطنية ! ....

كنت احني الرأس عند هذه النجوى كالقصبة الضعيفة التي تتلوى

من هبوب العاصفة كنت اضع يدي على قلبي واسير بين انتقاد المتشدقين الذين يتلهون بالحرف الذي يميت ولا يشعرون بالروح التي تحيي . كنت ابتسم حزنًا على المدعين الذين لا يعتقدون بوجود قوة الا قوتهم ولا يسمعون صوتًا غير صوتهم . كنت احتمل هزء الاجانب اقاربي بي وهم يقولون لي اترك هذه المتاعب وهذا الشعب الذي يفهم الفضل تطفلاً اخرج من هذا الوسط الذي يعيش فيه الاديب غريبًا ولا يحل به الا المتزلف المحاري . ادخل بيننا فانت على الاقل ان كتبت تكتب مثلنا وان تكلمت فلا ينقص كلامك صحةً عن كلامنا تعال فما بيننا يُنصر اهل الفكر ولا يلقى قلم الكاتب كمارٍ على وجهه . . . .

انت في وسط تغلي فيه مراجل المبادي المختلفة والفتك تتناهبها العناصر المتعاكسة فاذا نطقت بحقيقة هب بوجهك انصار المبادي الفاشية للمقاصد الذاتيه . . انت يمكنك ان تكون راقيًا في امة راقية فلماذا تفضل الجهاد ما بين شعب ستمر عليه الاجيال ولا يفتح عينيه للنور .

كنت اسمع هذه الاقوال فاكاد ان ارضخ لصحتها ولكن يد الملاك الواقف على اعالي جبل لبنان كان ينبعث نور عينيه الى جبيني ويلقي يده على قلبي فارفع الرأس واتقدم في هذا السبيل الضيق الوعر قائلاً :

هم اخوتي ذلك الشعب الضعيف الذي يضلله اهل الضلال ٠ هذه الرؤوس النائمة على سكون الاجيال تتمخض فيها كل القوى التي تجعل هذا الشعب المبدد امةً عظيمة وهو متسلسل من قادة الامم وحاملي مشكاة العلم على منارة الدنيا ٠

لغتي مهد الفلسفة والادب وارض اجدادي مورد السعة والثروة فسوف اجاهد مع هذا النذر اليسير من فضلاء وطني وتحت الراية العثمانية المحبوبة سوف نجاهد لاحياء بلادنا وترقية شعبنا واذا لم يقدَّر لنا ان نكون فاتحة دور الرقي الذي نرجوه فنكون على الاقل ضحيةً تجعل ختماً شريفاً على قبر شعب اماته التقليد ودفنته الاجيال في حفرة التشبه والاسر وكم ابتلعت هذه الحفرة من امة ولاشت من شعب ٠

يا غادة سوريا ان الذين ربوك على مباديك الحالية جعلوك خائنة لوطنك دون ان تشعري وانت لا تزالين تحبين التفرنج الذي لم يقف على قبعتك ولم يهبَّ على ملابسك فقط بل هو متاصل باميالك وقد تملك على ذوقك وها هو يلعب بقلبك ليجعلك شقية و يدفع ورائك رجال الغد الى حفرة العدم ٠

وقد يخال لك ان لا اهمية لعواطفك في احوال الوطن وتقدمه وتقهقره فاسمحي يا اختي ان اقول لك ولربما تتعجبين من هذا القول : انت اساس التقدم ومبدأ نجاح الامة ٠ ان الذي لا يفعله ساعد الشاب القوي من تلقاء نفسه توحين انت الى القيام به بابتسامة ونظرة ٠ وان ما

يتوه عنه عقل الشاب مع كل افتكاره تنزلينه انت عليه بكلمة ولفتة .

انظري يا غادة سوريا الى ما حولك وتأملي ، هذه شبيبة بلادك هم اخوتك وطلاب يدك كلهم صفر الوجوه من اليأس بالجهاد احنت الضيقة ظهورهم قبل ان يلامسها الهرم واختفى من عينيهم لمعان الامل قبل ان تضرم نار الحب لفتاتهم .

انظري هذا اخوك ياسره دفتر المضارب وذاك يركض لارادة المحتكر ذاك تديره يد الاجنبي ولا يسمح له ان يفتكر بما يعمل بل يجب عليه ان يقوم بالواجب كالآلة الصماء وهذا كاليهودي التائه يقف مفتشاً على حجر يلقي عليها رأسه فتناديه قوة المادة المشوشة : امشي امشي ، فيقوم متوكأً على ارادته المنحلة ويتابع سيره ناظراً الى الارض لان الزمان لا يسمح له ان يرفع ابصاره الى السماء .

انظري يا غادة سوريا ، انت التي ورثت رقة القلب وعوامل الانعطاف تراثاً مقدساً من امك انظري الى شاطئ بحر الروم كم سالت عليه من دمعة وكم تفطر على شاطئيه من قلب . تاملي في ضعف بلادك وابكي على الارض التي حملت سريرك وضمت رفات اجدادك واعلمي بانك قادرة على تحويل ارض الوطن الجرداء الى جنة زاهرة ، انت قادرة ان تسدي باب المهاجرة المفتوح كالهاوية التي لاقرار لها ، انت قادرة ان تحولي اصفرار اليأس اللامع على جبين الشبيبة الى حمرة القوة والامل .

الدواء سهل يا غادة سوريا اذا تحرك قلبك وعاشت عواطفك .

اخلعي اثوابك التي حاكتها يد الاجانب كقيود تاسر قلبك والبسي ما حاكته يد ابن الوطن فلا يلبث حتى يقتدي الرجل بك فتعيش صناعة النسج وعلى حياتها يتوقف نصف حياة الامة .
احتقري الزخرفة الاوروبية والرياش الذي لا فائدة منه وهو يستغرق نصف ثروة البلاد .

شباننا يركضون وراء هذه السفاسف لانها من ذوقك فهم يريدون مرضاتك ولكن حين يرون على شفاهك ابتسامة الاحتقار لهذه اللوامع المفنية للبلاد فحينئذٍ يحولون ابصارهم معك الى احياء وطنهم ومصانعه ومذارعه المهملة .

تعوّدي ان تحبي لغة اجدادنا فلا يطول الامر حتى يألفها ذوقك وحينئذٍ ينجلي لك الجمال الكامن في ادآبها والقوة المرقية التي تجول بشعرها . وحين تصلين الى هذه الدرجة تصبحين سورية مرتقية وتزول عنك وصمة الاقتداء بالشعوب التي لا يمكن لك الوصول الى كمالها . كوني سورية عظيمةً ولا تكوني افرنجية منحطة فيعتبرك الاجانب انفسهم ويحفظ لك التاريخ ذكراً جميلاً .

ضحّي اميالك الضالة وقوي ارادتك في هذا السبيل الشريف يا اختي فانك بعاطفة واحدة تحيين امة كبيرة تولاها القنوط والعجز كوني وطنية حقيقية فتحيين الامل الميت في قلب الشبيبة التاعسة

مدي يدك ايها الملاك الى هذه القيود الثقيلة التي نجرها في عبودية حياتنا واكسري حلقاتها الضيقة فيدك اللطيفة هي وحدها قادرة على ذلك .

حرري هذه الشبيبة الشقية من اسرها لترفع رأسها الى العلا وتفتش على ملجاء قلبها بين يديك ولا تعود تائهة بقوة فقرها الذي ولده تطلبك بين ظلمات الفسق القاتل والضعف المميت .

اطلب منك هذا باسم اخوتي المعذبين واستعير صوت الوطنية الواقفة ناحبة على جبالنا لاكلم فيك دماء سوريا العظيمة التي تجول في قلبك الرقيق .

ايتها الملاك ان حياة الغد بين يديك . انت الجحيم وانت النعيم وتحت ارادتك حياة الوطن وموته قدرتك عظيمة ايتها الغادة اللطيفة فلا تستعمليها للشر كشيطان بل حوليها لخير اخيك وخطيبك كوني ملاكاً كما نعتقد بك فتعدين لنفسك جنة الحياة الدنيا قبل جنان الخلود



فتاة لبنان

خير الروايات ما تُسبر فيها جراح
الامة وارقاها ما ترك في نفس
المطالع ميلاً الى
الاصلاح .

[فتاة لبنان]

مر الهزيع الثاني من الليل والصبية لم تنم بعد .

نام ابوها منهوك القوى من العمل في الحقول طول النهار ورقدت امها قرب اختها الصغيرة وساد السكوت على تلك العيلة الهادئة التي تحيا بالعمل ولا يدخل بابها رغيف خبز ما لم يقطر من جباه افرادها ما يعادله عرقاً .

بين ذلك السكوت العميق في قلب الظلام المجلل الحرش والرامي اطرافه على القرية الحقيرة، كان البيت الصغير مختلطاً مع اشباح الليل منفرداً تناجيه ارواح الطبيعة التي تتساوى عندها الاكواخ والقصور .

كان السراج يبعث نوراً ضئيلاً على الاوجه الاربعة : ثلاثة منها لا يرتسم على جباهها غير تموجات الخيال الذي ترسله الاحلام حينما يقوم الوهم مقام الافكار قاسماً حياة المرء الى شطرين شطر الراحة وشطر العذاب . والوجه الرابع ذلك الوجه المستدير المشرق بعينين زرقاوين كالسما الصافية تحطاته دائرة من الشعر الاشقر كانه هالة شفافة على اطراف القمر. ذلك الوجه كان مستنداً على كف عبثت بها المياه المحرقة في معمل الحرير ولكن زندها العاري الناصع البياض لم يزل ناعماً

صافي اللون كأنه مسبوك من شعاع الشمس او مكوّن من ذرات الاثير الوردي عند الشروق .

لو أتيح لشاعر ان ينظر من الكوة المفتوحة الى داخل البيت لتوهم ان القمر المتعب من ذرع السماء قد ولج هذا المسكن الحقير ليرتاح من مصافحة السحب ومناجاة العاشقين . ولكن القمر كان لم يزل بعد وراء الجبل العالي يتقدم ببطء ليتسنم ذروته ويقف مرسلاً شعاعه الى الكوة المفتوحة حيث القمر الانساني ينتظر شروق اخيه .

وردّت الصبية انظارها الى النافذة فتلاشى ما كان يحمله ذلك النظر المتقد بين ذرات النور الضعيف المنبعث من السراج الساهر مع عيني الغادة الساهدة .

مرّ الهزيع الثالث من الليل فاطل القمر من على الرابية فترجرج الظلام الساكن في مطارح شعاعه وما لبث حتى انجلت دقائق الوشاح الليلي عن جثمان الطبيعة الابدي فتحركت الطيور في اعشاشها وقد خدعها شبيه النهار وصغرت دوائر النجوم السابحة في الفضاء كأنها تراجعت اجلالاً لملك السكون .

كل الاشياء التي لا تنام في الطبيعة ، الغدير المتسرب بين الاعشاب والاعشاب نفسها ، الاشجار الباسقة واوراقها المتحركة بحركة الحياة الدائمة ، الصخور النامية من دقائق الاثير تحت جنح الليل كما بالنهار ، كل الطبيعة التي لا تنام لان ارادتها مقيدة بغير هذا العالم وحركتها

مربوطة ما وراء المنظور في الازل ، كل منظور انتبـاهه كرقاده هزته حركة خفية لدي ملامسة نور القمر له فكأن ذلـك النور يد الام الساهرة تمر بخفة وحنان على وجه الطفل الراقد .

كل موجود شعر بانبثاق نور الشمس الغائبة وراء مدار الارض والمرسلة صورتها على مرآة القمر الصافي ، ذلك الجرم المنطفي ذلك المظلم المنير . ولكن الحيوان بفرعيه الناطق والاعجم فقد بات كما هو ولم يتحرك . لم يشعر بنور القمر لانه قسم من الطبيعة خرج منها وانفصل عنها فهو نائم لرضوخ ارادته للضرورة .

اما الجماد فانه لا ينام ، نظامه متعلق بقوة خارجة عنـه تديره كقلب صبيـة الكوخ الساهدة التي اصبحت حياتها في حياة كائن ينفصل عنها واضحت ارادتها مندغمة في ارادته فهي ككل جماد الطبيعـة لا تنام هي كالزهرة التي تحيي الليل باسره تمتص جراثيمها خلاصة الارض لتهدي عبيرها نسيم الصباح وذلك النسيم يذبلها ويطرحهـا ميتة على التراب الذي تغذت منه .

مع الغدير الجاري على الحصباء ومع النبـات والجماد شعرت الصبية بامتداد نور القمر على الارض واول اشعة اخترقت النافذة الحقيرة كانت ميعاد خروجها لتحت القبة الزرقاء . فجلست على فراشها بتحذر ونظرت الى ما حولهـا واذ تأكدت استغراق الكل بالوسن قامت وفتحت الباب مندفعةً الى الخارج ودمها يكاد ان يتفجر من صمامات

فؤادها النابض بشدة كانه يريد الخروج من صدرها .

تقابل القمران وجهًا لوجه فارتعشت الاشجار كانها تنحني امام الجمالين جمال الفتـاة المستعير الاشراق من الجرم السماوي التائه في الفضاء وجمال ذلك الكوكب الذي انعكست عليه ايآت المحاسن الحية وهي معلنة مجد الدائم على الزائل .

وهنالك تحت الصفصافة القديمة المدلية اغصانها على ماء الغدير كأنها تحنو عليه وهو يتململ متألما على الحصباء . هنالك على مرج نضر رصعته الازاهر كالنجوم على الاطلس المستدير . هنالك كان فتى ... هو في عنفوان الشباب جميل الطلعة طويل القامة ملتف بدثار رمادي طويل مشقوق من وسطه حيث يغطي الكتفين وينفرج عن عنقٍ جمع القوة والجمال . وكان الشـاب واقفًا وانظاره مصوّبة نحو باب الكوخ كانها كرة النار موجهة لافتتاح قلعةٍ حصينة .

فتح الباب وظهرت الفتاة فاسند الشاب قلبه بيده الشمال وبيده اليمنى القى بالدثار على المرج فظهر لعين الغادة بكل جمال الفتوة تحت نور القمر المتـألق وقد ارتفع عن الجبل كانه يتملص من رؤوس الاشجار ليشاهد مآساةً هائلة جديدة تمثلها الاهواء على ملعب الارض الابدي .

— جميل !!

— سلمى !!

— نعم انا . . اتيت لانني لا اريد الاخلاف بوعدي لك . رغماً عن تعب النهار الذي انهك قواي لم يغمض لي جفن وقد حملني الشوق اليك . . أحب لقائك يا جميل لانني لا اشعر بالحياة الاَّ بقربك ولكنّ شيئاً خفياً لا اعلم ما هو يكاد ان يقعدني عن ملاقاتك كلما ضربت لي ميعاداً . كلما فتحت الباب تحت جنح الليل وانت تنتظرني هنا اتبين من بعيد على نور النجوم القاتم قبة الكنيسة المرتفعة فوق كل القرية كانها تسود على ما ارى كما يعلو الكاهن المذبح وهو اعلى من الشعب يقرأ في ذلك الكتاب الذي يوحي بالابتعاد عن كل قبيح . .

— سلمى ! . . دعي الاوهام بحق حبنا وهو اقوى من الموت واحر من النار دعي الكنائس المرتفعة الى عنان الجو فانها مبنية من تعب الفقير لتسخر به . دعي الكاهن فهو ضعيف العزم يفضل المتاجرة بالاوهام من ان يشتغل كباقي الناس ويعيش منعتقاً من ربقة الضلال الذي يأسر نفسه به ويأسر الناس .

وكان فم جميل لم يزل مفتوحاً يريد ان يندفع بكلامه الى حدٍ بعيدٍ فمدت سلمى يدها الى فمهِ والقت اصابعها المحروقة على شفتيه الورديتين وقالت :

— اسكت يا جميل والا اغلقت اذني عن سماع كلامك . لماذا تجدف على بيت الله وهو ملجأ النفوس المعذبة ؟ اذا تركتني انت

فالى اين التجي !

— انا لا اتركك يا سلمى ولكن اعتقادك بان الكنيسة هي ملجأ الحزانى لهو اعتقادٌ فاسد ولو نظرت كما نظرت انا في اميركا والبلاد المتمدنة كيف ان الكنائس والكهنة ترتفع على قلوب التعساء لغيرت ظنك وضحكت من نفسك .

— انا لم اذهب لاميركا يا جميل ولا اعلم ما يعبد الناس هنالك اذ انني خلقت في قريتي على سفح لبنان وطني حيث الكنيسة مسقوفة بجذوع الاشجار كبيوتنا والكاهن فقير مثلنا يشتغل بحقله مع اولاده ليعيش . انا لست متعلمة في الكليات ولا اعرف ان اقرأ بغير كتاب الصلوة الذي اهدتني اياه السيدة اولغا في الصيف الماضي حينما اتت من بيروت لتصطاف في مزرعتنا ومع ذلك مع كل جهلي يا جميل اراك مخطئاً باعتقادك مع انك درست في بيروت وسافرت الى اميركا والناس يقولون عنك انك فيلسوف .

— سلمى ! انا اتيت تحت جنح الظلام من طرف القرية لهنا كي اراك واسمع كلمة الحب من فمك الجميل اتيت لالقي رأسي المتعب على صدرك البلوري وها أنذا ارى بدل هيامك معارضاتٍ وهمية واجد نفسي مضطراً للتفلسف معك . ارى الكنيسة والكاهن واقفين حاجزاً بيني وبين صدرك المشتعل بالوجد فاريد ان اريك وهن هذين الحاجزين . انت لم تعرفي شيئاً من العالم يا سلمى انت لا تقدرين

على التمييز لتعرفي بان الكنيسة ليست الا شركاً يصطاد به القوي الضعيف فاعلمي بان الانسان لا يحتاج لمعبد وكاهن ليعيش انت لا تجهلين بانني عاقل ودارس فاسمعي مني وانا لا اريد ان تكوني على ضلال : ان الشريعة هي مثل الترتيب في المعمل الذي تشتغلين به تتغير حسب ارادة الناس وضرورة الايام فالاديان كلها اكاذيب واضاليل ولا شريعة غير القوه ولا اله الا اله واحد وهو الحب . انا آخذ حقي من الدنيا قدر قوة يدي ودماغي وانت تاخذين حقك قدر جمالك ولطفك فاتركي الاوهام والكاهن والكنيسة الى جانب وتعالي نعبد قلوبنا انطرحي على يميني لانها قوية ولا تخافي .

— اخاف ان تتركني يا جميل فامن التجي بعدك ؟ انا احبك بكل سذاجة قلبي وقوة شبيبتي ولكن باسم من تحلف وامام من تربط عهدك وانت لا تعتقد بدين ولا بشريعة ! . .

— احلف بشرفي وهذا القمر السائد في الفلك كما تسودين في قلبي وهو شاهد عليّ فسوف احلك من قيود المعيشة الفقرية وسوف انزع اليد المتسلطة عليك في معمل الحرير حيث انت عبدة ذليلة واقودك معي الى العالم الجديد نترين هنالك نور الحياة وتذوقين لذة العيش .

وباتت سلمى جامدة مسحورة بجمال حبيبها كأن قوة غريبة تضغط على قلبها الضعيف وكالعصفور الصغير المضطرب امام الافعى

الهائلة شعرت الصبية بانجذاب عواطفها الى الهاوية المفتوحة امامها ٠

وبقي جميل يتكلم طويلاً عن فساد المبادئ الفاشية بين الشعب الساذج فكانت كلماته تسقط كنقط السم على قلبها ٠ وكان الفتى الضال يمد مباديه السافلة الى قلب الفتاة الطاهر طارداً منه كل المحاسن التي اوجدها الايمان به ٠

هي ترى الله والشريعة مجسمين بالكاهن والكنيسة ولا تفهم من سر الفدا غير تمثيله على المذبح وكان جميل يعرف بان الله ليس الكاهن وليست الشريعة الهيكل ولكنه عرف بان ذلك القلب الساذج يحصر كل اعتقاده بالمنظور وانه حين يخلو من ذلك الاعتقاد يخرج العفاف منه ويضمحل في شكوكه كل طهارة وحذر فاخذ يبين لسلمى ضلال بعض الكهنة في حياتهم المملوءة خبثاً يوشيها المجد وتحتاطها السعة والبذخ ٠ قائلاً بان سلطة كهذه لا يمكن لها ان تمثل شريعةً مجردة منبعثة عن نور السماء ٠

تحت تلك الصفصافة الضائعة على سفح لبنان فوق الوادي العميق قرب الغدير الصافي السائل بهدو بين الاعشاب دوى صوت ڤولتير مرة ثانية على الارض ٠

وكانت سلمى قد جلست على دثار جميل المفروش على الارض وجميل جاثٍ امامها ويده المحترقة بحرارة الشر ملقاة على كتفها المرتجفة ٠ فقالت

— جميل .. اسمع لكلامي فانني ساذجة لا اعرف كيف اتكلم ولكن لا يجب ان يتعلم القلب ليشعر . كنت احب لو كنت مثل ابي قائماً بارض ابيك واجدادك . ابوك قد قضى وامك ماتت وانت وحيدٌ في هذه المزرعة الحقيرة لا نسيب لك ولا قريب تعيش منفردا عن القوم كانك لست منهم وتتكبر على لابسي العباءة كان اباك لم يرتدِ مثلها ليقوم بمصاريف تعليمك في المدرسة . انت كالطير الغريب في مزرعة لبنان يا حبيبي تركت عشك الجميل لتملئ دماغك بافكار لا افهمها وما عدت الينا الا بزي جديد ملفوفاً باثواب غريبة لتركب غارب البحر وتبقى هنالك السنين الطوال وها انت ما بيننا كانك لست منا فلا يمكن لنا ان نفهمك كما لا يمكن لك ان تفهمنا ولو لم يكن رباط الحب اقوى من المدى واعلى من طبقة العوائد لما كنت تراني الان بين يديك . احبك يا جميل واذعر منك اشتاق الى مرآك واحذر لقياك فانت امامي جميلٌ مشرقٌ كالقمر ومظلمٌ مخيفٌ كاطراف الوادي البعيد .

— ويلاه يا سلمى كفي ملامك فان غصن الورد لا ينتقل من تربته ويرمى لرحمة العواصف الا لقوة غالبة وارادة جائرة بلادي صخرة جرداء وافقها ضيق على النظر الطامح الى بعيد . تعلمت ان ارتفع بافكاري الى الامور السامية فاحتقرت المحراث وثقلت على كاهلي ملابس اجدادي فاندفعت كما يندفع اخواني ابناء لبنان الى

الاوقيانس البعيد وهنالك ذقت ما لا يحلم به سكان صخورنا ولهذا اريد ان اعيش كما يحبب العيش لي وسوف اعود الى بلاد الذهب والسرور .

— ويلاه يا جميل يرتجف قلبي من كلامك وهذه الارباض الهادئة تضطرب منك فكانك نسرٌ خارج من بيضة حمام ينتفض بجراة وشدة مخالفاً كل شريعة ونظام . انت ولدت مثلي في هذه المزرعة الساكنة الهادئة ولكنك لم تعد صالحاً لسكناها كما لم يعد بها شيء يحببها اليك ويكفيني ان انظر الى اثوابك التي لا يصنع في بلادنا منها قطعة واحدة لاتاكد بانك صرت غريباً وبك كل الاميال التي تجعلك معرضاً لحياة الاستعباد في بلاد الاجانب . اسمع لصوت حبي دع عنك هذه المطامع وخذ لك ارضاً تشتغلها بما لديك من المال فتاتيك بالارباح اشترِ ارض ابيك التي باعها ليعلمك وهذه يدي بيدك لنحيا بسكون ونموت بسلام في مزرعتنا الصغيرة ففي بساطتها نلقى السعادة والراحة .

وكان صوتها هادئاً ترنُّ به كل نغمات الحب الصادق والاسترحام فكأن لبنان الساذج السعيد تجسم بذات تلك الفتاة الطاهرة القانعة لينزع من قلب جميل مطامع المهاجرة وضلال الحياة الجديدة .

والقى جميل رأسه على كتف الفتاة فتمثلت لديه صورة الحياة الهادئة في مزرعته قرب سلمى وهي تحبه بكل قواها رأى نفسه

ساكنًا في بيت ابيه القديم وارزاقه، تدرُّ عليه اللبن والعسل وتخيل انه بنى معملاً صغيرًا يشتغل به مع عدد من اهل المزرعة بصناعة النسج التي تعلمها في المهجر فاهتز بنفسه وجدان اللبناني القديم فوضع فمه على شفتي سلمى الورديتين . فكأن بهذه القبلة التي رنّت على كتف الغدير فتلاشى صداها مع خريره كانت رابطة عهد جديد بين قوة لبنان وجباله . .

ولكن تلك النفس اللبنانية المجبولة على العفاف لم تكن لتقوى طويلاً بطبعها على ما تطبعت عليه . وذلك الاعتقاد اللبناني القديم الذي رسخ مع الادهار لم يكن ليقوى على الشكوك المتسلطة عليه من فساد بعض التقاليد السطحية .

تلك الليالي التي قضاها جميل بين غابات نيويورك وعواهر مرسيليا تمثلت لوجدانه المشكك كشبح اللذة الكاملة ومودع السعادة الحقيقية وذلك السم الذي دار بدمه مع ملاصقة الفواحش والنزول الى قعر الدنس ذلك السم كان لم يزل جاريًا يحارب دماء اللبناني القوية .

وكانت سلمى قد سكرت من مظاهر الجمال الطاهر الذي لاح لعينيها على وجه جميل حين افتكاره بسعادة الحب وسكنى الوطن فارتخت عزائمها ورقدت روحها بين طيات الامل .

كل شيءٍ في هذا الكون مقسوم الى قسمين قسم يأمر وقسم

يرضخ . ذرات الدقائق . الجوهر الفرد لا يكون الاّ مذدوجاً ولا يمكن تصوره منفرداً مـا لم يصبح عدماً وفي ذات ذلك الجوهر المذدوج يوجد متعدٍ ولازم يوجد سابقٌ ولاحق اولٌ وثانٍ تابعٌ ومتبوع . فلا يمكن اندغام متشابهين ما لم يكن متسلطٌ وراضخ . لا يوجـد اشتراك تام الاّ بالظواهر في الطبيعة المنظورة .

روح سلمى الثملة بعواطف الحب الاكيد وحياته الامل وروح جميل المحترقة بحمى الملاذ ونارها ذكر الضـلال الماضي وامل اللذة العتيدة . حياةٌ طاهرة وحياةٌ مفسودة تندغمان بقوة مجهولة تضم كل شيء حتى كانها تمزج الخير بالشر مزجاً .

سرٌ هائلٌ في هذا الكون يجعل القوة سـائدة وهي مفصولة عن الخير فكأنما قد قدر على الصلاح ان يلازم الضعف ويرضخ ابداً للجور فيفتخر بالانكسار وتكون حياته بالضحية .

توسط القمر كبد السماء واصبحت اشعته الساقطـة عمودياً على الارض تقصر الاشباح وتضم كل خيال لجرمه فانيرت المروج العارية حول الصفصافة واصبح خيـالها مستديراً يغطي جذعها والدائرة المنبسطة حولها فكأن القمر رأى ما سيكون هنالك فضن على المجرم بنوره وخشي ان تتاطخ اشعته الفضية بدماء الطهارة المهدورة .

هنالك لم يكن حيبان . هنـالك لم يكن غير خادعٍ ومخدوع

قاتلٌ وقتيل .

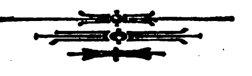
..   ..

..   ..

ساد السكوت وتوالت الساعات وكان القمر قد جنح الى جانب الافق محمرًّا كانه متشرب من الجرة الجريمة المستورة ودامت الارض سائرة في هذا الكون الفسيح لتتمم دورتها اليومية .

تكحل الشرق بغبارٍ ذهبي وهب نسيم الصبح عليلاً ليحيي الروض الشاخص الى السماء بجمود المفتكر فاتخذت مياه الغدير لونًا ذهبيًا يتوهج على الحصباء بين المرج وقد ظهرت عليه زهرة حمراء جديدة بين ازاهر الطبيعة البيضاء الطاهرة ...

كان الوسن لم يزل سائدًا على اجفان الانسان . وهنالك في الكوخ الحقير اختلطت ذرات النهار بنور السراج الضئيل وقد شح زيته وقارب الانطفاء . وعلى الصفصافة القديمة التي زرعها ابو سلمى على تلك الاغصان الخضراء الناضرة . بين السكوت المجلل الطبيعة بخشوعها . كان عصفورٌ صغير قد فتح عينيه للنور وبدأ يغرد !!!



***

اشرقت الشمس على ثغر بيروت المفترّ بكل جماله امـام بحر الروم الصافي فكانت السماء تبتسم للارض والارض تهـدي السماء أبخرة الصباح الزرقاء المتصاعدة الى العلا كأنها عرف البخور . وهنالك عند اقدام لبنان حيث ترتفع الصخور على صفحة المـاء الممتد الى اطراف الافق كان الترامواي اللبناني سائرًا مخلفًا وراءه المعاماتين وجونيه ووجهته بيروت .

من ركاب الطبقة الثانية كان الشاب عاشق سلمى مسندًا يده الى نافذة القطار وانظاره تسبح على وجه الماء وتسير نحوَ الافق كانها تريد الوصول الى ما وراء الحجاب . وكان يفتكر :

لقـد مضت سنة منذ وطئت رجلاي ارض اجدادي فخال هذا العام قرنًا طويلاً . ما اثقل رجل الزمان السائرة على قلب فارق وسطه ولم يعد يشعر بالحياة الأ على ما تعود . هنـالك في الولايات المتحدة لا يحتاج الانسان لاجهاد الفكر ليعيش هنالك كل شيءٍ مرتب التجارة والصناعة حتى الكذب والاحتيال والسرقة لها ابواب معلومة ونظامٌ متبع وهنا اذا اراد المرءُ الاتيان بعمل فعليهِ ان يحارب العناصر والاحياء معًا عليه ان ينكر ذاته لقاء الصالح العـام فينجح من حوله ويبقى هو تعيسًا . في كل بلاد الله ينجح الفرد ليعم التقدم كل الامة اما هنا فيجب ان يسقط افرادٌ كثيرون ليدخل الرقي عن الطريق العامة

و يعود مقسماً على الافراه . كان معي حين حضوري سبع ميئة ليرة ضخمت كيسي بعد جهاد اربع سنوات وها أنذا ارى بأسفٍ ان داء الهزال يسطو على هذا الكيس فهو كالمريض الذي تجهده الحمى ولا يتغذى فقد اصيب بفقر الدم . وكل مدة يجب ان احضر لبيروت لانها تمثل لي خيال البلاد المتمدنة فلا اخرج منها الاَّ منهوك القوى فارغ الجيب .

بيروت استغرقت نصف مالي ولكنَّ بيروت ستعوض عليَّ .

بنات الهوى يفرغن الكيس ولكنَّ اولغا ستملئهُ . ابوها تاجر معتبر وواسع الثروة فلا تقل الدوطة عن الست ميئة ليرة وحينئذٍ وداعًا يا لبنان ! !

اولغا ليست جميلة ولكنها متمدنة هي تلبس كورسه ايديال وقبعة افرنسية ووشاح انكليزي واساور اميركانية و.. و..

وبحصر الكلمة هي خلاصة تمدن العالم كله .. تتكلم الانكليزية والافرنسية وتخلطها بشيءٍ من العربي .. مسكينة سلمى ما كان احقرها في عيني في الصيف الغابر حينما كانت تذهب للتنزه مع الغانية المتمدنة . سلمى تلبس قميصًا من دير القمر وفسطانها من من ديما بيت شباب مفصل على طرز باريزي محض فهي تخاف ان تشد على صدرها وفي رجلها حزاء من جلد زجله ضخمٌ بلون اغبر لانها تصبغه كل سنة مرةً .

ولاحت على شفتي جميل ابتسامة صفراوية مركبة من كل

العواطف المتزاحمة المتلاطمة في قلبه ٠

حين افتكاره بسلمى تذكر الليلة التي اوشكت ان تمحي من مخيلته وقد طبعت بكل تفاصيلها على قلب الفتاة المخدوعة وعلى سفح لبنان واشجاره وغديره لان لبنان كان محتملاً إهانة جديدة من ابنائه بشخص فتاته الطاهرة الساذجة ٠

***

جنحت الشمس عن الهاجرة وهوت على منحدر المدار الذي ينتهي على افق البحر ٠ في احد بيوت بيروت الكبيرة باحدى قاعاته الواسعة العالية كانت عانسٌ تبلغ الخامسة والثلاثين من سنيها عريضة الاكتاف ثقيلة الردف مقطوعة من وسطها بزنار مذهب مربوط برخاء لانه لا يحتاج للشد والكورسه من وراء الفسطان واصل الى اخر ما يمكن للشريط ان يشد ٠ وكانت جالسة على مقعدٍ مخملي احمر وفسطانها الكحلي الفاتح متدلٍ برخاء وترتيب على الارض وبيدها جريدة لم تزل مربوطة بغلافها ٠ وبعد ان قلبت العانس جريدتها مرارًا بين يديها ضربت على جرسٍ كان بجانبها فدخلت الخادمة

— خذي هذه الورقة يا مريم فلربما تلزم للمطبخ .

وتناولت الخادمة الجريدة وبعد ان نظرت اليها بامعان قالت .

— هذا جرنال معلمي نسيب وهو يسالني كل اسبوع عنه فكيف تريدين ان القيه بين اوراق المطبخ ؟

— آه هذه الجريدة العربية خذيها حالاً واحرقيها فان نسيب قد اصبح مجنونًا من يوم مطالعته هذه الورقة فهو كل اسبوع يملي آذاننا باخبار جديدة واراء مضحكة فهو تارةً يقول لي ان اتعلم العربي وتارةً يعطيني اوامر كيلا اقف على الكشف مرةً يعارضني اذ يجدني احادث شابًا على خلوة ومرةً يأتينا منشدًا اشعارًا يقول عنها انها اسمى من نفس موسى وارفع من خيال هيكو وانا احتمل تشدقه فلا افهم غير قرقعة القاف والضاد والعين فاخاف على اذني ان تنسد .

والبارحة اتانا بنغمة جديدة هو يريد ان البس قطعة ديما احضرها من جهنم .. وقد لبس ثوبًا شديد الشبه بملبوس الايطاليان الذين يشتغلون على الطرق وهو يقول ان هذه الاقمشة هي مصنوعات الوطن ؟

خذي هذه الورقة بالله عليك لانني اخاف ان يطلع عليها نسيب ويكون بها وصفة جديدة تاتيه بجنون جديد .

وأخرجت الجريدة العربية من غرفة المتفرنجة محمولةً على ايدي مريم وهي لا تدري ان بها شرارة الحياة لبلادٍ تفتح عينيها للنور . القيت

الجريدة في النار فالتهبت ومريم ناظرة الى لسان اللهيب الازرق المتلاعب في الموقد وهي لا تدري بان تلك النار هي روح الوطنية وانفس الكتاب السائلة كقطرات الدمع على تاخرنا وضلالنا . وهنالك في الغرفة الواسعة كانت اولغا قد اخذت من جنبها كتاب « صفحة غرام » بقلم اميل زولا واستغرقت في القرآة معجبة بالسموم التي كانت تدخل لقلبها ضاحكةً من جنون اخيها وحبه للجرايد العربية .

وما لبث حتى فتح الباب على مهل ودخلت الخادمة قائلةً :

— سيدتي اتى جميل .

— اين هو ؟ دعيه يدخل حالاً

واذ ادارت مريم وجهها لتذهب استوقفتها اولغا قائلةً :

— اين امي يا مريم ؟

— هي في غرفتها تلبس اثوابها لتذهب لزيارة مدام بطرس .

— لا تقولي لها ان جميل اتى دعيها تذهب فعند رجوعها تراه .

— امرك يا سيدتي .

وما توارت الخادمة خلف الباب حتى وقفت اولغا بتحذر ليئلا تقطع الشريطة الماسكة طرف المشد بربطة الساق فتراجع ردفها قيد ذراع الى الوراء وانحنى صدرها الى الامام وبدأت تتخطر في الغرفة كانها سابحة في الهواء . واستوقفت المرآة انظارها فلبست وجهاً جديدا يلائم حالة الملتقى ثم ركضت الى المقعد وارتمت عليه مرتبة

طيات ثوبها بكل وأن .

فتح الباب ودخل جميل حاملاً بيده علبة مذهبة الحواشي وتقدم حتى لاصق ركاب اولغا فبقيت جالسةً « مودة افرنسية : السيدات لا يقمن للرجال »

رأت اولغا سيدات الافرنج يفعلن هكذا في المحافل الرسمية فخيل لها ان هذه العادة مقبولة بكل ظرف حتى مع الحبيب ! !

هكذا تعودنا ان نتمثل بالاجانب . . كل شيء من وجهه القبيح .

اهتزت اولغا على مقعدها دلالةً على فرحها ومدت يدها الشمال بحركة مرتقصة فاخذها جميل ورفعها الى شفتيه فقالت :

— اهلاً وسهلاً . اي متى حضرت لبيروت ؟ .

— بقطار الظهر

اول كلمة نطق بها الخطيب امام خطوبته كانت كذباً ! ! وصل جميل بقطار الصباح وسار توًّا لمشاهدة احدى الغانيات قرب مرسح التريانو و بعد ان مضى معها الساعات الطوال توجه لسوق الطويله واشترى العلبة هدية لاولغا واتى لديها قائلاً انه وصل بقطار بعد الظهر ! ! ! !

— اجلس هنا قربي . . وقل لي اي متى نسافر ؟

ثم القت انظارها على العلبة فلم تعد تستطيع الصبر لسمع الجواب

فاردفت — ما هذه العلبة ؟

— هي اساور احضرتها لك تقدمة ارجو قبولها .

— لا سبيل للرجاء فقبولها مني واجب عليك .. اي متى نسافر ؟

— حالاً بعد الزفاف اذا شيئت .

— واي متى الزفاف ؟

— الاحد القادم

وطال الحديث بين الخطيبين .

قاربت الشمس ان تغرب ووالدة اولغا لم ترجع بعد من زيارتها .
قام جميل قاصداً المبيت في لوكندة اميركا فوقفت اولغا وشيعته الى الباب وهنالك تعانق الخطيبان والخادمة واقفة على قمة الدرج تنظر اليهما وبعينيها بارقة نار خضراء ..

هذه القبلة المتبادلة بين الضلال والدوطة . بين الخداع وحب المجد . هذه القبلة الباردة بين شفاه المتمدن والمتمدنة كانت عربون اتصال تحل عليه البركه الالهية وتجعله مقدساً ... وهنالك على سفح لبنان في حقول المزرعة الهادئة كان صدى القبلات المحفوظة في تموج النسيم يدوي مع خرير الغدير كنواح الغادة التي تجبل خبزها بدمها وتمزج شرابها بدموعها ..

.. ..

.. ..

***

وكانت الباخرة الافرنسية تتاهب للاقـلاع من مينا بيروت والزوارق تتوارد اليها زرافات ووحدانًا وقد اختلط المودع بالمسـافر ووقفت الام لجنب ابنتها والابن لجنب ابيه ، الصديق قرب صديقه والحبيبة قرب الحبيب وكلهم شاخصون الى السماء كأنهم يستطلعون ما كتب لهم في المجهول ٠

من يدري ان لم يكن بذلك الملتقى اواخر القبـلات واوائل الدموع التي لا يجففها غير الكفن ٠

على ظهر الباخرة كان كاهن وشاب واقفين ويد كل واحد منهما بيد صاحبه وكلاهما شاخصان الى قمم لبنان العالية ٠

وكان الشاب يقول للكاهن :

ـ لا تلقِ الملام على شبان سوريا المتخرجين في المدارس فهم اتعس شبيبة في العالمين ٠ دعهم يذهبون واذا ضاقت بهم الحـال يجدون معملاً يشتغلون فيه اما اذا مكثوا هنا فلا معامل ولا معادن ولا زراعة راقية فاما ان يضربوا بمعاولهم الارض او انهم يطوفون في البـلاد باجساد انحلها الهم ونفوس تنتظر الفكاك من اسر الحياة ٠ لبنان لا يحتاج لمثل هذه الثمرات الساقطة على الارض وقد عبث بها الهواء لانها ناضجة قبل اوانها فنهضة لبنان لا تقوم الا بقوة الايادي العاملة والاجساد الشديدة التي كان يجب ان تخرج كنوز الارض وها هي

تتدفق من جبالنا العالية الى شاطئ هذا البحر ليحملها الى قلب العالم الجديد .

— انت تطلب عذرًا لنفسك ياسعيد فلا اراك مصيبًا بكل ما تقول .

— انا مقتنع كل الاقتناع بما اقول وهذا برهاني : قبل ان تجبرني الظروف على الابحار قبل ان اصرف اخر درهم ابقاه لي ابي بعد وفاته وقفت مرارًا على هذا المرفأ اتامل بالمهاجرة في حين لم اكن من طلابها فكنت ارى ابناء الوطن بل نسمته وروحه يبارحونه جسدًا انحلته الادواء فالقي على الاجساد القوية الضخمة المملوءة شدة وحياة نظرة اسف وترحم اما القسم المهذب الراقي من اخوتي فكنت ازودهم دمعةً ورحمة . كنت اشعر معهم بما اشعر به اليوم واتاسف على وطن يكفيه خمودًا وعارًا انه يقذف عنه شعلة الذكاء المنزلة عليه برؤوس اتعس ابنائه . فما اشبه حالة الفتنا اليوم يا ابي بتلك المغاور البعيدة الاطراف التي يسطو عليها الفساد الى درجة تنطفئ بها كل شعلة تلمع بديجوره الاربد . ولكم راينا من تلك اللمعات ما بيننا لكم لاح لنا من نورٍ يسطع وشيكاً ثم يتبدد بكربون الفساد فكانه لم يكن . . . اين اديب اسحق ونجيب حداد واليازجي واي نفعٍ ابقوه للبلاد بل اية حياة نفخوها في قومنا ؟ وهم لم يتركوا غير نفثات اقلامهم تدخل الى صدور الشبيبة فتدفعها الى القنوط وتجرها الى

القبر فكأن تلك الاقلام تحمل مع الفكر السامي ميكروب السل الذي افنى تلك الاجساد التاعسة .

اذا بارح الوطن رجال العمل عن طمع وجشع وكسل وبعض الضغط فلا يبارحه رجال الفكر والعلم الأكرهًا وعن ملالةٍ من الفهٍ تحتاج لا نتباه ولد باكثر مما تطلب عقل رجل . تحتاج لمن يحسن الجمع والضرب والقسمة باكثر من احتياجها لمن يحل صعاب الرياضيات في موقف الاختراع المفيد والاعمال الكبيرة تحتاج لمن يكتب :

(بعد سوال الخاطر العاطر واصلكم صورة الحسابات !!)

باكثر من احتياجها لمن يلقي القلم على القرطاس فيغرّد تغريدًا تحتاج لمن يعرف استجلاب البضائع الاجنبية باكثر من استعدادها لقبول اهل الفكر والعمل المستقل الذي يخرج من الوطن ما يفيد ابناءه . تحتاج لكل من ينادي بالمباديء المقتبسة عن الاجانب بقطع النظر عن ملائمتها للبلاد وترفض كل راي ينزع الى الافادة بارتكاز مبداه على الحاجة الماسة وضرورة الوسط الحالي . . .

ووقف سعيد عن كلامه بغتةً كما ينقطع مطر الربيع حينما يتساقط بشدةٍ من السحب التي تلامس الجبال .

وكان رفيقه الكاهن يلعب باطراف لحيته واصابعه النحيلة ترتجف بحركة عصبية تدل على تهيج شديد وبعد سكوت قصير فتح الكاهن فاه وقال :

— لربما يكون بكلامك بعض الحقيقة يا سعيد فانت تظهر وجوب بقاء الفلاح العامل في البلاد لان وجوده ضروري لحياة الارض ولكنني لست من رأيك بعدم نفع الطبقة الراقية للوطن . اعلم يا سعيد ان الفة بلادنا واقفة بين خائنين وهما الغني الحريص يقضي ليله بلعب الميسر ونهاره بالرقاد على فراش الرخاء والكسل والفلاح الجاهل الطامع الذي ضربه طاعون التشبه والتطاول فترك ارض ابائه وذهب الى حيث يقنع بلبس السترة والبنطلون. اذا احتج المهاجرون المتعلمون بان المدارس التي لا نعرف واجباتها زرعت في قلوبهم كل ما يدفع للمهاجرة فبم يتعلل الفلاح يا ترى ؟ اما الطبقة المتهذبة الفقيرة فما اراها الا سفينا ضائعا بين بحر الشعب الهائج وزوابع الاغنياء ورعود صلفهم ومواطر ضلالهم . تلك الطبقة لا تقدر ان تدير القوة الجاهلة لقصر اليد ولا يمكن لها اقناع ذوي الثروة لفتح ابواب الاعمال المفيدة . شبيبة الوطن المهذبة هي العسكر المجاهد الذي يحتمل كل الجراح في هذا الممر الصعب فيجب عليها ان تثبت لتكون رابطة الاتحاد بين الصناديق المقفلة والارض المهملة يجب عليها الا تيأس من الوصول يوما الى موقفها الذي تعده لها العناية السرمدية .

انا لا الومك لتركك هذه البلاد يا سعيد انت تهرب من الجولان بالشوارع والتعرض للفساد انت تهاجر كيلا تموت فيك القوة والموهبة

ولكن سيأتي يوم وهو قريب ينتصر العلم به على جهل العامل وضلال المثري وحينئذٍ يصير كل شاب متهذب وعالم مسئولاً امام وطنه اذا بارحه يصبح مطالبًا امام الله والالفة اذا هرب من موقفه لانه يكون اذ ذاك جنديًا جبانًا يخلي الارض التي وضع للمحافظة عليها نهبًا مقسماً للاعداء . .

اذهب يا سعيد الى حيث قدر لك ولكن خذ مني وصية واحرص على اتمامها . لا تقف كل حياتك في بلاد المهجر لجمع المال فقط بل تعلم من ارض العمل ما يمكنك نفع بلادك به اذا رجعت . لقد مرّ الوقت وعن قريب سيحملك البخار الى بعيد فليكن الله حارسًا لك ولا تدع الفساد يسطو عليك . كلما قامت بوجهك صعوبة تذكر الهك يا سعيد تذكر وطنك فانت مديون له . لا تترك هذا العش الجميل خاليًا من كل فراخه . .

. .　　　. .　　　. .　　　. .

. .　　　. .　　　. .

نزل الكاهن الشيخ على سلم الباخرة وعيناه دامعتان وجبينه العالي مصفر كالشمس التي تلامس افق الماء آذنةً بالمغيب . وما وضع رجله على مقعد القارب حتى اصطدم بقاربٍ آخر كان يشق الماء بسرعة للوصول الى السلم فادار الكاهن وجهه فراى احد ابناء وطنه من المزرعة القريبة لقريته جالسًا وقربه فتاة ضخمة ترفرف القبعة

فوق جبينها وعلى وجهها نقاب صفيق يلاعبه الهواء فدهش الشاب اذ راى الكاهن وقال له .

— الوداع يا ابانا بطرس .

— جميل .. الى اين ؟

— انني من اميركا واليها اعود .

— لا يا ولدي انت من لبنان . قدر الله ان ترجع اليه .

— المستقبل لله ارفقنا بدعاك يا ابي

— مع السلامة وليكن الله معك يا جميل .

وكان جميل يتكلم وعيناه مصوبتان نحو المرفا وجبينه يتقطب بحركة اغتصابية وفواده ينبض بشدة وهو يجتهد ان يخفي اضطرابه .

ضرب النوتي بمجذافه صفحة الماء فمخر الزورق عبابه وسار توًا بالكاهن الشيخ الى المرفا واذ وضع خادم الله رجله على الدرج حانت منه التفاتة فرأى ابنة قروية واقفة امام الحاجز الحديدي وبيدها منديل غطت به عينيها وقطرات الدمع تتساقط من بين اصابعها الى الارض .

وكانت الباخرة قد صرخت بصوتها الابح معلنة المسير وارتفع من داخونها ضباب اسود كثيف فادار الكاهن وجهه لجهتها فرأى صديقه سعيد واقفًا على المؤخر وبيده منديل يومي به اليه مودعًا . فارتفعت افكار الكاهن الشيخ الى العلا وهو يناجي رحمة خالقه باسرار الحياة وحالة لبنان . ولكن لم يطل وقوفه تحت جنح التامل والصلاة

حتى سمع صوت زفير متقطع وتنهد متحشرج فادار وجهه فرأى القروية قد هوت على البلاط امام غرفة البوليس محافظ المرفا .

سقطت القروية على الارض وارتمت يداها برخاء على صدرها المرتجف فلاح وجهها المصفر لعيني الكاهن كأنه شبح اليأس وخيال الموت فتبين من تلك الملامح الشاحبه صورة سلمى تلك الفتاة التي طالما رآها جاثية بخشوع في كنيسة قريته .

تألب الناس حول الفتاة واحتاطوها باحداقهم فتقدم الكاهن دافعاً الجمهور بلطف حتى وصل قرب سلمى وكانت غائيبةً عن رشدها فاخذ بيدهـا طالباً معونة احد الحمالين رافعاً اياها بين ذراعيه الى خارج المرفا وهنالك وضعها في عربة وسار بها الى احدى اللوكندات القريبة تتبعها انظار الحضور وكان ما بينهم شابٌ مرتدٍ اخر زي وبيـده قضيب خيزران يلاعبه فقال :

— لايمكن ان يسطو الهرم على هولاء الغربان وما كان اولى ان نسميهم نسوراً فهم يجددون شبابهم امام كل فتاة وسيدة ! ! .

***

في احدى غرف النزل العلوية المطلة نوافذها على البحر كانت سلمى ملقاة على السرير واجفانها تابى الارتفاع عن نور عينيها كأنهـا

تضن عليه ان يختلط بنور الحياة ٠ ❁

وكان الاب بطرس جالساً على المقعد بعيداً عن السرير يتطلع من النافذة الى البحر ويعود ملتيا انظاره الهادئة على وجه القروية الشاحب وافكاره تائهة بين العالمين تسقط كالنسر لتنظر الارض عن قريب وتعود محلقة مثله الى السحاب فتنفسح امامها مجالات المنظور ٠ كان الكاهن اذ ذاك بحالةٍ لا يدركها الا فئة قليلة ممن يصدقون بالغير المتناهي ٠

كان يفتكر بالمادة ونظامها فيراها محسوسة امامه ولكنه لا يرى غير قسم صغير منها لا يرى غير الوسط الذي يحتاطه فترتبك مباديه ويتململ ثم يدفعه التامل بقوة الايمان الى ما فوق فتضعضع افكاره كانها نورٌ ضعيف بين الضباب فيرى المادة كلها والالفة باسرها ٠ يتبين شرائع الانسان ومطامعه وسعيه وجهاده ولكنه لا يتمكن من سبر هذا الغور البعيد ٠

المفتكر كالنسر يلمس المحسوس لمساً فلا يرى الا دائرةً محدودة لا يتجاوزها بصره ٠ يريد ان يرى كل شيء فيحلق في عالم الخيال واذ يصل الى اعلى ذروة يتسنمها الفكر يلقي نظره على الارض فيراها منبسطة امامه واسعة الارجاء يحدها الافق من جوانبها الاربع ٠٠ ولكن ٠٠ ماذا يرى ؟ يرى كل شيء ولا يرى شيئاً ٠٠ تكاد الجبال تغور في السهول وتختلط الامواه بالصحراء القاحلة فـلا تتبين عينه

المحدقة بارادة المعرفة غير جرمٍ بعيد لا يفهم منه شيئاً .

هذي هي الدنيا واسرارها امام العقل الانساني الذي يريد ان يفهم خفايا العناية الازلية المدبرة الكون تحت مظاهر الظلم والشقاء تلك القوة الغير مفهومة التي تنزل الرحمة دموعاً والسرور شقاء والكرامة هواناً .

اذا اراد الفيلسوف ان يعرف الدنيا واحوالها بواسطة الاستقراء الحسي فانما هو لامس جزءاً صغيراً من الطبيعة المنظورة هو يستقري هو يلمس ولكنه لا يلمس اكثر مما تصل اليه اليد في هذه الدائرة المحدودة التي يسمونها افق العقل المادي .. فتكون احكام المفتكر بهذه الحالة صحيحة على ما يرى وفاسدة على ما لا يرى ... اما اذا ارتقى الى ما فوق ليبحث فهو بعيد جداً عما ينظر يرى كثيراً ولا يفهم شيئاً . يشعر بالحقيقة ولكنه لا يلمسها يتاكد بان الارض ليست الا شبحاً وهمياً يسبح في الاطلس الفسيح وحقيقة ذلك الخيال ثابتة الى الابد في مكان مجهول ... يقتنع ويؤمن ولكنه لا يتمكن من اقناع سواه ممن لا يصدقون بغير ما يلمسون .

على تلك الذروة العالية كان الكاهن الشيخ واقفاً في تلك الساعة ناظراً الى ما وراء افق البحر الى السفينة الحاملة المجرم المتمتع بالحرية ولذة الانتقام وهو يبتسم لعروسته ولاموالها ثم يلقي انظاره على القروية النحيلة الفاقدة الرشد الساقطة وهي بريئة تحت حمل الشقاء

والرازحة تحت ضربة القضاء الهائل .

كان الكاهن يرى بعيني جسده بشقاء المهانة وسعادة المهين اما روحه المرتقية الى ما فوق فكانت ترى غير ذلك كانت ترى العروس وعروسته محاطين بضباب اسود كثيف والقروية المخدوعة المتروكة محاطة بهالة النور اللامعة التي تكالل رؤوس الشهداء ولا تنظرها العيون الترابية .

تململت سلمى على فراشها وفتحت اجفانها وكان الظلام قد هجم بطلائعه على المدينة ودخل منه ضباب رمادي الى الغرفة. فتحت عينيها وشخصت الى السقف وهي تقول .

— جميل آه ما اقساك .

فوقف الكاهن على مهلٍ وتقدم الى قرب السرير وقال بصوت الطبيب الذي يكلم جريحًا :

— لقد اكثرت من ذكر جميل وانت غائبة عن الرشد يا سلمى فعرفت سرك الهائل . افتحي عينيك واجلسي يا ولدي فقد اتت ساعة التعزية بالله .

فحدقت الفتاة بابصارها واذ تبينت قربها شبح الكاهن الاسود تراجعت الى زاوية السرير وغطت عينيها بيديها وتمتمت بصوت خافت يرتجف خوفًا :

— الى اين تتبعني ايها الرجل ؟ لقد رميت بنفسي الى قعر البحر

تخلصاً من عذابي وها انتَ واقف امامي لم تزل تطاردني اذهب عني . . دعني في سكون الموت . . احترم الفناء اذا كنت لا تعتبر الشقاء . . .

فوقف الكاهن مبهوتاً مما يسمع وقد دا خله شك هائل ! !

— ايُّ رجلٍ تعنين يا سلمى ؟ انا الاب بطرس كاهن قرية . . . انا ابو سعدى صديقتك . انا الذي باركت زواج ابيك وامك انا الذي سكب ماء المعمودية على رأسك فلماذا تخافين مني ؟

وما سقطت هذه الكلمات على قلب سلمى الجريح حتى جرى الدم بشدة في عروقها فجاست وفركت عينيها كانها مستفيقة من حلم عميق وقالت :

— الاب بطرس . . . ابو سعدى . ويلاه اين انا .

وادارت لحاظها في جوانب الغرفة كانها تفتش على مهد فتوتها على الحقول الجميلة والكنيسة البسيطة . لمعت عيناها لحظة وعاد اليهما الجمود فانطرحت على فراشها اذ وقفت امامها تلك الصفحة السوداء التي كتبها الزمان ولم تعد تقوى على محوها يدٌ بشرية . انطرحت بكل قوى اليأس وهي تقول :

— اذهب ايها الماكر انا امقتك دعني . لقد كفاني الخداع الذي احتمل ويلاته من الدنيا فلا اريد ان تشترك السماء بالغضب عليَّ ؟ ؟ ؟

واخذت الفتاة تردد كلمات متقطعة غير مفهومة والكاهن الشيخ

واقف يصلي ودموعه سائلة ببطء على لحيته الطويلة البيضاء

***

أُنيرت الغرفة .

وكان الكاهن الشيخ واقفًا امام النافذة وسلمى جالسة على المقعد . وكانت تتكلم بصوت مرتجف وفي عينيها لمعات تلوح وتنطفئ كآخر شعاع الشمعة الذائبة .

— نعم يا ابي بعد ان هربت من مزرعتي المحبوبة حاملة لعنة والدي على رأسي ودموع امي بقلبي بعد ان ودعت ابتسامة اختي الصغيرة وتغريد شحارير الحقل الذي شرب عرق جبيني سنوات عديدة بعدان طوى الدهر صفحة فتوتي وعفافي حضرت الى هذه المدينة مفتشة على قاتلي فوجدته يتأهب للزفاف وجدته في لوكندة اميركا وغرفته مملوءة بالاثواب الجاهزة لعروسته فانطرحت على اقدامه ووضعت يده على قلبي ليسمع فيه نبضات قلبين فكان جزائي الطرد والاهانة وبعد يومين من ذلك الملتقى الهائل شهدت حفلة زواجه ذليلة صاغرة ورجعت الى النزل وعلى رأسي جبال من الحزن فرأيت هنالك رجلاً يعتبره الناس وهو يتكلم عن الدين والتقوى والادب وكانت غرفته ازاء غرفتي فاردت ان افتح له قلبي واطلب منه مشورة ورحمة فكانت

تعزية هذا الفاضل لي اهانة لاشجاني وتطاولاً على جسدي المضنى .
وقد كان لابساً ثوباً يشبه ثوبك يا ابي ولهذا ذعرت اذ فتحت عيني ورأيتك فاغفر وقد عرفت السبب .

لقد قال لي جميل ان الفضل ليس الا ستاراً للفظائع فلم اصدق ولكنني في ذلك الحين شككت بوجود الله وقد احتقرت الدنيا ومن عليها فقدت متماصة من يد الرجل هاربة تائهة على ساحة البرج وهنالك استوقفتني مناظر مريعة هنالك رأيت وردة ابنة القرية المجاورة لنا لابسة اثواب الحرير تتخطر ضاحكة ثاملة وكنت احسبها من قبل ميتة اذ سافرت من قريتها ولم ترجع ولم يسمع احدٌ عنها شيئاً .

ادخلتني الى غرفتها حيث مجالي الفخفخة والراحة وبعد حديث طويل فهمت من الدنيا ما لم اكن اعرفه من قبل . عرضت عليَّ وردة البقاء معها فرفضت وقلت لها انني اريد الموت قلت لها ان جميل مسافر غداً مع عروسته فاريد ان القي بنفسي الى البحر الذي سيحمله .
بكيت كثيراً وكنت خائفة واجفة في ذلك المكان الذي ترتفع حوله جلبة الفسق واصوات المدينة السكرى فاردت الخروج ولكن وردة لم تتركني تعلقت بثوبي قائلة :

— ابقي هنا يا سلمى . نامي على سريري آمنة من كل طارئ فانت الآن في حرم صديقة طفوليتك لقد اشتغلنا سنتين في معمل الحرير فلك عليَّ حق الرفيقة وواجب الصداقة نامي يا اختي وها أنذا

ذاهبة لاقوم بفروضي الثقيلة الهائلة ولا بدّ ان تعرفي يوماً ماهية هولها يا سلمى .

ذهبت وردة واقفلت الباب وكنت تعبة محطمة من اليأس فاستغرقت في نوم ٍ ثقيل حتى الصباح .

في وسط الفساد والضلال كنت آمنة على نفسي وفي المجتمع الطاهر الظواهر لم اكن غير حمامة ٍ في مخالب النسور .

بنت الهوى حمتني وفاضل الناس اراد اهانة روحي الجريحة ليأخذ من ضعفها ما يسلي بطره وضلاله .

انا مذنبة يا ابي اما جميل فمجرم .. هو دفعني الى الضلال مفسداً اعتقادي اولاً ثم توصل الى الخلق الدنس بي فترك في احشاي نطفة حياته وتبرر منها .. فهأنذا ارملة وزوجي حي .

هو مكرمٌ من الناس يتزوج بعذراء ولا يبتعد احدٌ عنه وانا مطرودة مهانة لا اجسران انظر الى السماء ويخال للناس ان لا حق لي ان امشي على ارضهم .

لا افهم يا ابي ماهية هذا العدل الذي يرحم القاتل ويجور على المقتول .

جميل لم يحفظ شيئاً من نتائج فعله وانا احمل ثمرة افساده لي ولهذه العلة يقول الناس ان جرمي اشد فظاعة من جرمه فكأن هذه الدنيا لا تجور الا على الساقط تحت الظلم .

— مهلاً يا سلمى اذا كانت عماوة الناس لا ترى الخطيئة الا على عاتق المظلوم التعيس فالشريعة السماوية ارفع من ان تحدد الامور كما يفهمها الانسان الضال . انت مذنبة عن ضعف وجميل مجرم عن قوة اذا كانت المادة تظهر للنظر ان جميل اعطى وانت اخذت فالعقل يرى غير هذا . انت اعطيت قسرًا وجميل اخذ جبرًا انت مسروقة وهو سارق . ولكن شريعة الفادي لهي مبنية على المغفرة يا ولدي اغفري يا سلمى فهذه الفضيلة التي تصير الرجل عظيماً ترفع المرأة الى اوج الالوهية . انظري الى ما فوق يا ولدي فان الفادي لم يأت الارض لاجل الاصحاء بل لاجل المسقومين اتى ليرسم نقطة واحدة على الفكر البشري وتلك النقطة هي المغفرة والامل فلا تتركي الشكوك تتسلط على ايمانك لان المشترع الكبير قد اتى لاجلك ولاجل اخوانك في الشقاء وهم يغطون بدموعهم وجه الارض .

واحنت سلمى رأسها بتعب كزهرة اضناها الذبول فلم تعد تقدر على احتمال النسيم الرطيب الذي سيحمل اليها الحياة . وبقيت برهة ساكتة ولكن قلبها الجريح لم يلبث حتى دفع الدم الى جسمها بشدة فرفعت رأسها وقالت .

— لما كنت على المرفا اذود خادعي بنظراتي الاخيرة كدت ان اصرخ هذا قاتلي اوقفوه ولكن قوة سرية اغلقت فمي فرأيت ان الناس كلهم ينظرون اليّ شذرًا رأيت الشيوخ يرمون عليّ نظرات

الاحتقار والشبان والكهول يحدجونني بلفتاتهم فاري على مرآة عينيهم صورة المشاهد التي يطبعها الفساد على ادمغتهم حين مرآهم فتاة مثلي يمكن التلاعب بحقارتها واغتنام الملاذ من آلامها وهوانها .

رفعت انظاري الى ما فوق فردها اعتقاد الناس بي الى اسفل نظرت الى البحر الحامل مجسم الطمع هاربًا من وطنه وذراعي القناعة والحب المفتوحتين له نظرت الى هذا الازرق البعيد الذي يسرق شباننا من بلادهم كما يقتلع حبهم من قلب فتيات لبنان فاحببت ان اطرح بنفسي الى اللجة اردت ان اغرق واموت حيث مرت سفينة قاتلي فخفت من الناس الواقفين حولي ولم اذكر خالقي لانني لم اعد اخافه بعد ان رأيت جميلاً لا يخشاه .

في تلك الساعة يا ابي حينما يصبح الانسان مخيرًا بين الحياة والموت في تلك الدقيقة الهائلة وقف شبح وردة امامي وقد فتحت ذراعيها العاريتين وهما مطوقتان بالاساور الذهبية التي رنت باذني كصوت جرس مزرعتنا حين يدوي في الليل لينبي بموت صديق او قريب .. رأيت وردة تنظر اليَّ وتتبسم فادرت لحاظي عنها الى وجه البحر العابس المتجهم وارتعشت معاطفي فبكيت لانني لم ارَ غير وردة والبحر . الحياة التي اخاف منها والموت الذي احبه بقلبي وابتعدُ عنه بقوة لا اعرفها . وكأن نفسي المتراجعة عن موت الحياة وحياة الموت وقفت متزعزعةً امام المجهول فشعرت بها كأ كرة نور

تتحول بغتة الى ظلام منحل . سقطت على الارض في حين ظهر لي وجهك يا ابي ، رأيتك ولم اعرفك لان السراج الوحيد لا يمكنه ان يبدد ظلام حياة دخلت في الليل ولم تعد تقبل النور .

وكان صوت سلمى يرنّ ضعيفًا في غرفة النزل الضيقة لانه كان اوهن من ان يموّج دقائق الهواء الفاسد المنتشر بين الجدران الواطئة ، ولكنّ اذن الكاهن كانت تسمع ذلك الصوت كأنه قهقهة الرعد ودوي المدفع فكان يلتفت الى جهة الباب خشية ان يسمع احد ذلك الكلام الذي يجب ان يهز الكرة لترتجف له الارض .

وبعد ان وقف الكاهن متأملاً قال لسلمى وقد وضع يده على كتفها وقال بكل وقار خادم الله وعفاف الشيخ :

— لماذا لم تطالبي جميل بحقوقك والقانون يقضي عليه بالتعويض ؟

— انا لا اعرف القانون يا ابي ولكنني سألت فقيل لي ان دون الوصول الى الاثبات عقبات هائلة يستحيل على الحقيقة اجتيازها فلا اربح سوى احتقار الناس والفضيحة والشنار واخر ما يصل اليَّ من التعويض عن حياة اصبحت لغوًا هو بضعة دنانير يذهب بها العار ليسطع لامعًا بدناءته امام الالفة وقلبي المخدوع . عبثًا تخرج الشرائع من مصدر الحق السامي اذا كان البشر لا يفهمون قوة العدل . ماذا يهمني اذا انتصر لي القانون وهو حين يبرز حكمًا على الجريمة يضحك

منها الجاني وتزيد بها جراح المُجنى عليه . ماذا يفيدني حكم العدالة في المحكمة والمحكمة الكبرى المؤلفة من الشعب كله ظالمةٌ عمياء لا ترى الجرم الا على كاهل الضعيف ؟

وكان الكاهن يفتكر .

في الشريعة روح سامية تتجلى على المواد لتجعلها حيةً تدير عنان الاحياء والناس يقرّون بوجود تلك الروح الازلية التي انزلها الله على اقلام المشترعين ولكنهم يخالفونها كل يوم ليس بافعالهم فقط بل بمباديهم ايضًا . بكل حركة وكل رأي نرى مخالفة عادات الالفة للشرع فهي تقرّ به اقرارًا ظاهريًا ولكنها تعتقد بالامور كما تشأ . بكل شريعة وُضع عقاب للرجل الجاني على العذرأ ولم يوضع عقاب على المرأة الجانية على الرجل لان منذ تشكيل المحاكم البشرية حتى اليوم لم يقم رجلٌ دعوى على امرأة اغتصبته ذلك لانه يكون دائمًا متعديًا في حين ان المرأة تكون غالب الاحيان مخدوعة مهانة ومع ذلك فالناس لا يفهمون واذا وجدوا خائنا وخائنة فهم يحولون كل احتقارهم الى هذه ويجدون اعذارًا لذاك ! !

منذ ايامٍ قام احد الكتبة المفكرين شارحاً تساوي الجرم بالخداع بين الرجل والمرأة واراد ان يعارض رأي الالفة بتبرير الرجل والقا كل الذنب على المرأة فانتصر لمآل الشريعة الشاملة مبينًا مطابقتها للواقع المحسوس من حيث المبدأ والنتائج . قصد ان يجعل الرآ

العام مطابقاً للحقيقة . اراد ان يقوم بهذه الخدمة فعارضه قسم كبير ممن يعتقدون بابقاء حاجز الجهل بين الفكر العام والشريعة الشاملة السامية .

التفت الكاهن بالفتاة وقال لها .

— ساتركك الان يا سلمى فنامي الى الغد والله المدبر الامور يسهل امامك سبل الخلاص .

— نعم يا ابي سانام الى الغد ولكن فى احضان الجزع والشقاء ولا أومل من الله شيئاً لان الله انما يوصل الى النـاس عدله بواسطة الناس وهولاء قد فسدوا فلا يصلحون رسلاً لرحمة خالقهم . لم يبق امامي غير وردة والاستخدام والاستعطا ولربما فضلت الحالة الاخيرة .

خرج الكاهن متعجباً من حديث سلمى وهو لايفهم كيف ان الشقاء يولد الفلسفة حتى في أبعد الناس عن العلم .

انطرحت الفتاة على فراشها واستغرقت بالبكاء ولم يلبث حتى ساد الوسن على عينيها المتعبتين وكان الكاهن لم يزل بعد ساهراً يصلي وهو يجول بافكاره على الالفة السورية ليرى بهـا موضعاً ينصرف فيه الضعيف الساقط ليجد مكاناً يقدر به الشريف ان يعضـد الضال التعيس دون ان يرمى بالحيف وسوء الظن . جال طويلاً حتى عثرت اماله ورأى نفسه وهو رسول الدين الآمر بالرحمة والغفران عاجزاً

عن مديد المساعدة لأولى الناس بالبر والاشفاق مقيداً بعوائد الالفة واعتقاداتها التي انفصلت على كل جميـل وعظيم . فاحنى رأسه بتعب وقال واليأس يكيّف مقاطع صوته .

— اذا ضاقت مجالي الاسعـاف على الدين والادب واذا اصبح الدين عاجزاً عن احياء النفوس البرية لان الناس تريد قتلها وتتهم بالضلال كل من يناصرها فقد بقي وجه واحـد اساعد به المخدوعة التاعسة .

وفتح الكاهن هميانه فوجد به خمسة دنانير قلبها بيده وقال :

في العالم دولتان دولة المادة ودولة الروح وقد اصبحت الارواح مهانة كيفما انقلبت حتى لا يمكنها ان تحسن بعد . فليس من قوة لغير المادة في هذه الالفة التي ضعف بها كل شيء لا يكون محسوساً . ولهذا حُصر الاحسان في الدرهم مميتـاً كل شفقة ادبية ومساعدة روحية تجعل النفوس عاضدة للنفوس .

كثير من الناس من يضحك مع الضاحكـين لان الضحك اشتراك المادة مع المادة ولكن اين الذين يبكون مع الباكين ؟ اين الصديق على شقاء الصديق؟ اين الابن على عجز ابيه؟ اين الحبيب على قبر حبيبته في هذه الالفة الجاشمة المسكينة التي يقتلها الطمع وهي ملقاة على حضيض الهوان .

— اين الذي يجلس مع العشارين ليردهم الى الحق الرفيع . اين

الذي لم تدنس قدماه من دموع الزانية النادمه ؟!!

وانا خادم ذلك المحسن العظيم الذي ظهر على الارض، انا الذي حصرت واجباتي بشفاء جراح النفس اينما وجدت اجدني مقيداً بعماوة الالفة التي تحيط بي . كان يجب ان اخذ سلمى الى بيتي واساويها بسعدى ابنتي ولكن حنان نفسي لا يمكن له ان يبرر جسدها فهي امام الناس شقية ساقطة ودنس جسدها يوصل الاذى الى كل عيالتي فنسقط كلنا معها ولا نقدر ان نرفعها .

وبهت الكاهن برهة طويلة كانت مبادي المسيح بها تناضل ضد عوائد الالفة وضلالها ولكنه رفع رأسه اخيرا وفي عينيه ذلة المنكسر وقال :

عفواً يارب فقد امتنع عليّ ان اكون خادماً لمباديك الالهية بروحي وقلبي فاسمح ان احصر احساني بهذا المال القليل الذي اصبح وحده مدار البشرية بعد ان اشتريتها بدمك وعززتها بروحك الازلية . وكثيرٌ من امثالي يضنون على اخوتك التعساء حتى بهذا المعدن الزائل . .

***

مرّ شهران على هذه الحوادث .

في اسواق بيروت المكتظة بالناس كانت امراة شاحبة اللون غارقة العينين حاملة طفلاً على ذراعيها وهي تتوسل الى المارّة باسم الله والولد ، باسم الدين والرحمة . هي ترتجف من الضعف واثوابها ممزقة تستر جسماً كان منذ اشهر قلائل كدمية الرخام ممثلة مجموع الجمال ... تدلي شعرها الاشقر قصيرًا على كتفيها وقد فقد لمعانه . اختلط بنور عينيها قتام مهيب فهي ظلمة متوهجة يخشع امامها الناظر .

اذا كانت لفتات العلماء والشعراء تدخل الاعتبار في قلب الناظر اليهم ففي لفتات المجانين ما يولد الخشوع والارتهاب . اذا دلت العين التي وراها قوة مفكرة على وجود نفس سامية في الانسان ففي العيون الجامدة وقوة ضعفها المذيب برهان لكمون النفس الناطقة لان لا شيء أدعى الى ظهور القوة الخفية من وجود العذاب فيها .

لو عاد جميل من وراء الاوقيانس البعيد وراى هذه المراة حاملة ابنه متسوّلة على قارعة الطريق هل يعرف بها سلمى يا ترى ؟

لو مر اللبناني قرب هذه المراة وهو يعرف روايتها فهل يجود عليها بدرهم ذاكرًا انها صورة وطنه المخدوع الضائع مثل هذه الفتاة التاعسة في

احضان المدنية القاسية ...

هي شريدة وحيدة بين هذه الالفة السائرة وراء السعادة وقد نضب ماء وجهها مع مياه حياتها وكل من عرف حالها يلقي عليها الملام ومن القساة الجهلة من يعنفها و يلعنها ...

هكذا تفهم الالفة ماهية الجرائم فاكبر المخلوقات اثماً لدى الناس من سقط ليتعذب ..

انتهى

